حبال من السماء

حبال من السماء

روايـة

علي العطياني

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

خط حبال السماء : عبدالرحمن عزيزة
صمم الغلاف : سارة عبدالعال
مراجعة وتدقيق : أ. محمود نبعة

بسم الله الرحمن الرحيم

يصعد ماء البحر المالح بخاراً فيكون غماماً
ثم يعود إلى الأرض غيثاً عدلاً نقياً، اصعد بقلبك
للسماء وانظر كيف يعود.

- ابن القيم -

١

المنزل الفارغ من البشــر يبدو باردا حتى في الصيف والدفء يعم البيت المزدحم في عز الشــتاء والتعايش يورث الطمأنينة والوحدة تورث الوحشة، لم يثن ذلك الجد الخمسيني رشيد الجالسـ في بيتــه في منطقة الجبيهة الجبليــة عن قراره بأن يكمل حياته وحيدا منذ ســنين طويلة منذ أن كان في شــبابه وصــحته رغم أنه كان قادرا على أن يتزوج ويملأ المنزل عليه بعائلة تؤنس وحشته وتجعل شتاءه أكثر دفئا.

رشــيد رجل هادئ جدا ، عود نفســه منذ الصــغر بأن يحل مشاكله وينجز أموره بهدوء تام، مخلص في عمله ويحبه جدا ويحب التخصــص الذي قرر أن يدرســه في شبابه ويعمل به، وهــو الآن يمتلــك مختبرا للتحاليل الطبية ورغم أن منصــبه في المختبر كمالك ومســؤول عنه لا يحتم عليه ســوى مراقبة العاملين فيه والتأكد من سلامة العمل إلا أنه يصر دائما على العمل بيده.

عــاد رشــيد في تمام الســاعة الرابعــة والنصــف إلى منزله بعدما كان قد خرج في تمام الســاعة الســابعة صــباحا إلى مختبره، خلع ملابســه الأنيقة ولبس ملابس تكفل له الراحة في المنزل، دخل المطبخ وأعد وجبة خفيفة لشــخص واحد ثم أخذ الطعام وجلس على الطاولة البلاســتيكية الموضوعة في الحديقة الصغيرة التابعة لمنزله المكون من طابقين.

اكتسب رشيد مع الأيام نفسا راضية افتقر لوجودها في مرحلة صعبة من حياته في شبابه، إلا أنه صنعها مع الأيام والظروف بداخله كسور عملاق من الحديد وأمره إيمانه قائلا : «آتوني أفرغ عليه قطرا» فأصبحت نفسه الراضية حاجزا صلبا بينه وبين شــعوره بالوحدة أو التعاســة، عندما تنظر لرشيد وهو يأكل بنهم وســعادة كل يوم وحيدا في حديقة منزله تشــعر أن باقي كراسي الطاولة الصغيرة الفارغة مشغولة بباقي أفراد عائلة مرحة لا تكف عن المزاح أبدا على مائدة الطعام.

وسط أصوات محركات السيارات المارة وأوراق الأشجار التي تحك بعضــها بعضــا بفعل الهواء وأطراف أصوات المارة من أمــام المنزل رفع الهاتــف النقال داخل المنزل صــوته مناديا، ترك رشــيد ما تبقى من طعامه ودخل مســرعا ليجيب، نظر للشاشة، إنه رقم أوروبي، تهلل وجهه فوق تهلله المعتاد وأجاب

مسرعا ... «يحيى يا حبيبي ، أهلا وسهلا ،،، كيف حالك يا بني ؟؟ اشتقت لك جدا .. متى ستزورنا ؟ هل هو قريب ؟»

بعد حوالي ربع ساعة أغلق رشيد الهاتف وكأنه بشر بمولود جديد من شدة تهلل وجهه.
إنه يحيى ابنه المقيم في بريطانيا منذ سنوات سيأتي إلى الأردن غدا بعد المغرب مع توأميه اللطيفين الاشقرين جمان وريان أما زوجته الأنجليزية «سارة» فلن تأتي معهم لانشغالها وارتباطها بعملها.

جلس رشيد على كرسي من مجموعة كراسي الخشب القديمة الموضوعة في الحديقة ليكمل صدمة فرحه عليها فما أيقظه إلا صوت المؤذن يؤذن لأذان المغرب، نهض مسرعا ليتوضأ ولبس ثيابه بكامل أناقته كعادته منذ الشباب، وتوجه للمسجد.

مع كل متر يتعداه رشيد في طريقه للمسجد كان يلقي سلاما هنا ويسأل عن حال هناك ويستفسر عن حال الكرب الذي أحاط بفلان ويبارك بحلول مناسبة سعيدة للعائلة الفلانية، بين عائلة جالسة في الحديقة أمام منزلها تجتمع على الشاي والمكسرات والفواكه وبين عجوز جالس أمام محله مشرفا

على أبنائه وبين أطفال يلعبون ويلهون في الشارع، كانت هذه خلطة مفضلة لرشيد تنعش روحه ذهابا وإيابا من المسجد، بالإضافة لعطر الذين مشوا معه في هذا المكان في يوم من الأيام ثم سبقوه ليكملوا حياتهم في الأعلى، ليس عطرا عاديا وإنما عطر الذكرى، عطر المشاهد، عطر الحوارات والكلمات التي غيرت الكثير الكثير من حياة رشيد، لا يسعه الآن في طريقه للمسجد إلا أن يدعو لأصحابها والذين ما زال يشعر أنهم حوله ويسيرون معه حيثما ذهب.

صلى رشيد ثم توجه للسوق لشراء بعض حاجيات المطبخ وحاجيات التنظيف باختلافها ثم عاد مسرعا عاقدا العزم على ترتيب منزله استعدادا لاستقبال ضيوفه .

في المنزل غرفة كبيرة نوعا ما ذات شكل مستطيل طوله ثمانية أمتار وعرضه أربعة أمتار، فيها مكتبة خشبية أنيقة على ثلاثة جدران - جدارين كبيرين وواحد صغير- الباب يقع في زاوية أحد الجدران الكبيرة وتوجد نافذتين متوسطتي الحجم في الجدار الكبير الآخر، على هذه الثلاثة جدران تم وضع أشكال هندسية ثمانية من الخشب الداكن كل واحدة منها قطرها نصف متر تقريبا موضوعة بشكل عشوائي، تشبه الورود في تصميمها الداخلي الذي يتكون من

مربعات ومعينات تجاور بعضــها بعضــا، تضم هذه الأشكال كتب المكتبة، الجدران في الأصــل تم دهنها باللون الصــخري الفاتح وتظهر الجدران في المســاحات الصــغيرة الفارغة بين الأشكال الثمانية، الجدار الصغير الذي بقي فارغا من الغرفة طبعت عليه بالكامل صــورة عالية الجودة للسماء وهي زرقاء يتخللها غيوم بيضــاء خفيفة، إذا قسمنا الغرفة إلى مربيعين متســاويين، ففــي المربــع الأول البعيــد عن الحائــط الفارغ -إلا من صــورة الســماء- وضع طقم من الكنب المصنوع من خشــب الزان البني الداكن تم تنجيده بمخمل مخطط طوليا بخطــوط عريضــة ما بين أحمــر وأزرق على خلفية فضــية، يتكون الطقم من ســبعة مقاعد بالإضافة لكرسيين صغيرين بحجــم كراســي طاولــة طعــام عاديــة بنفس لون الخشــب والمخمل، يشــكل طقم الكنب شكل مربع ناقص ضلع والضلع الناقص هو الأقرب والموازي لصــورة الســماء المطبوعة على الجدار البعيد ، يتوســط الطقم طاولة خشــبية كبيرة مربعة وأربع طاولات صــغيرات ذات شكل دائري، الأرضية رخامية، وضــعت ســجادة عجمية مزخرفة يغلب عليها اللون الخمري تحــت طقم الكنب، المربــع الآخر وهو الأقرب للحائط الفارغ تم إنشــاء نافورة صغيرة ثمانية الشكل على أرضه كتلك التي في البيــوت العربيــة الدمشــقية، زخرف جدارهــا الخارجي بالفسيفســاء، أقيم باســتخدام الجبس المصبوغ باللون البني

الصــخري عمودان أمام طرفي صــورة السماء وملتصقين بها ويخــرج من أعلــى كلا العمودين قوس ليلتقيان في منتصــف أعلى الصــورة كلمســة أندلســية فريدة، باب المكتبة خشبي مزخرف بفن التوريق الأندلسي، وتمتد الزخارف من الخارج إلى محيط الباب لترســم برشــقة عشــوائية من الفسيفساء المختلفة الألوان فخر الزخرفة الأندلســية الأصــيلة، تشــكل ألوان الفسيفساء حول الباب أشكالا هندسية بعضها مكتمل والبعض الآخر على أطراف رشــقة الفسيفســاء غير مكتمل ليؤكد عشــوائية الرشــقة، يعلــو الباب لوحــة رخامية كبيرة مستطيلة، كتب عليها بخط النسخ العربي المزخرف عبارتين تعلــو إحداهما الأخرى، الأولى «عش حياتك الســماوية قبل موتك» ، والعبارة الثانية تقول «واعمل ليبقَ وجودك الدنيوي حاضرا للأبد».

بعــد الإرهــاق الــذي حل برشــيد إثر عمليــات تنظيف كافة أرجــاء المنزل وفي تمام التاســعة مســاء توجه رشــيد لغرفة المكتبــة وأخذ كتابا ثم توجه لغرفة نومه وأطفأ ضــوء الغرفة وأشــعل الإنارة الخافتة بجانب ســريره وجلس على ســريره وبــدأ بالقراءة كعادتــه حتى يغلبه النعاس ولا يســتغرق ذلك غالبا أكثر من ساعة واحدة أو أقل.

٢

«هــل يعقل يا جدي !! هــل يوجد في زمننا هذا من يعيش في منزل بلا تلفاز !» قالت جمان ذات الســبعة عشر عاما وهي تحضر آخر طبق من أطباق العشاء إلى مائدة الطعام.

رد توأمهــا ريــان ممازحا «وما شــأنك أنت يا فضــولية !! لن نجلســ هنا أكثر من ثلاث أســابيع، ألا تملكين الصــبر على فراق التلفاز فيهن!؟»

لم يعلــق يحيــى على الكلام وكأنه لا يســمعهما أو ربما فعلا لم يسمعهما لأن كل حاوسه مشغولة بالطعام الآن، أما رشيد فضــحك من التوأمين وقال «لنناقش الموضوع لاحقا ولك ما يرضــيكي يا جمان فكما قالت عني جدتك -رحمها الله- أن رأيي قابل للتغيير متى ما أثنته لكمة الحجة الواضحة فأوقعته أرضــا وأن هذه الصفة هي من جعلتها تقبل بي مبدأيا كزوج بالرغم من اختلاف مبادئنا وطريقة تفكيرنا قبل الزواج».

كان رشـيد يمتلك نظرة خاصـة في موضوع التلفاز حيث كان يقول أن التلفاز ذو أثر سـيئ على الناس على كافة الأصعدة وفي مختلف الأعمار، وأنه هو نفسـه بعد هذا العمر الطويل والثقافة العالية يخشى على نفسه من مكر التلفاز.

لا ينكر رشـيد أنه تابعه لسـنوات في نهايـة مراهقته وبداية شبابه حيث لم يكن منتشرا جدا في طفولته، لكنه الآن موقن أن التلفـاز يحشـر في رأس الشـباب مع بدايـة إقبالهم على الحياة أن الحياة كلها متاعب وأن لا يحاولوا لأنهم سيرهقون ويفشـلون وسـتواجههم عقبات أخرى من المستحيل التخلص منها على مسـتوى الوصـول للنجاح في العمل والسـعادة في البيـت والراحـة في التعامل مـع الناس، وتدخل سـوء الظن في كافـة العلاقـات، ومن الطبيعـي أن تعرض الدراما هذا الشـيء لأنها في النهاية يجب أن تصـنع المشاكل والصعوبات أثناء حلقاتها لتصنع التشويق ولضرورة وجود قصة ما تجعل المشاهد ينتظر نهايتها، وهذه المشاكل موجودة فعلا وعقبات الحيـاة كثيرة والغدارين كثر،لكن تعرضـك لـكل هذه الأمور ليس حتميا، أما وفي حال كان قدرك أن تتعرض لها وتواجهها فعـلا فـإن وجهة نظر رشـيد تقـول أن التلفاز يفصـل واقع الأرض عن وجود شـيء جميل يسمى السـماء، ويربط حياة الإنسـان كلها بالأرض وينسـيه أن جزأه الجميل النقي المريح هو من السماء.

المشاكل تدمر أصحابها على التلفاز ولكن سبب هذه المشاكل الرئيسي لا يعرض أبدا على أنه سبب لمشكلة بل على العكس تماما، يرى رشيد أن السبب هو الانقطاع عن السماء وما نزل منها أو أخذ ما نزل منها بطريقة خاطئة.

من جهة أخرى يرى رشيد أن البرامج والمسلسلات المشوهة للحقائق والتاريخ بنت نجاحها من الغبار المكدس على الكتب المنسية في المكتبات وأن سوء الخلق المضخوخ من التلفاز في دماء الناس تشبث في القلوب بكلاليب إلتهاء الأهالي عن أبنائهم بتوفير لقمة العيش أو الرغبة في الحياة العصرية بمفهومهم الأعوج .

بعدما سمعت جمان وجهة نظر جدها رشيد العميقة بعض الشيء عن التلفاز ، مطت شفتها السفلى وقالت : «لا أعلم يا جدي ، ولكن ليس كل شيء في التلفاز كما تقول، بالإضافة إلى أنني مثقفة ومتعلمة ولن أسمح للتلفاز بأن يؤثر بالسلب على نفسي».

رد رشيد «بالنسبة لي فإن التلفاز ماكر جدا ويسرق الشخص بلا شعور إلى مبادئ وأفكار وطرق تفكير ومشاعر خاطئة ويبني في عقول الناس نظرة محدودة جدا وضيقة عن الحياة».

سكن المنزل من ضجيج الحوارات الطويلة بين الجد ويحيى وجمان وريان في تمام العاشرة مساء حيث استسلم الضيوف للنوم بسبب سفرهم المنهك، ورشيد كعادته اتجه لمكتبته ثم لسريره وقبل أن يغط في نوم عميق أرسل رسالة لأحد المسؤولين في المختبر بأنه سيتغيب عن العمل لأيام معدودة .

❀ ❀ ❀

نحن في شهر يوليو، الصيف في عز شبابه في هذا الوقت من السنة إلا أن الصباح في مدينة عمان وخصوصا في المناطق الجبلية كالتي يسكنها رشيد بارد ونسمة الهواء الباردة التي تهب على سكان هذه المناطق تدغدغ الروح، والشوارع شبه خالية إلا من الضباب.

بوجه سمح عجوز وخطى الشباب، خرج الجد رشيد صاحب الطول الفارع والشعر الكثيف المخلط بين السواد والبياض، خرج قاصدا أحد محلات الفلافل في صويلح ليكرم ضيوفه بوجبة حمص وفول وفلافل بنكهتها الاردنية المتميزة على وجبة الإفطار.

كانت هذه بداية اليوم الأول للضيوف في بيت رشيد واستمر اليوم الأول على هذا الحال في المنزل ما بين طعام ونقاشات

ولحظات سكون واسترجاع للذكريات بين رشيد ويحيى، وفي المساء وبعد نقاش طويل آخر عن التلفاز بين جمان الفتاة التي تشعرك أنها أكبر من عمرها تماما كما كان والدها في شبابه وبين رشيد، رضخ رشيد رغم عدم اقتناعه وخرج مع العائلة كلها لشراء تلفاز جديد واستدعوا فيما بعد فني لتركيب جهاز الإرسال الخاص بالتلفاز.

إنها المرة الأولى التي يقوم بها بشيء غير مقتنع به، قد يظهر موضوع التلفاز هذا موضوعا بسيطا لا يستحق النقاش إلا أن الأمر مختلف بالنسبة لرشيد الذي لا يقبل على أمر غير مقتنع به وصاحبته هذه الصفة مع اختلاف تقلباته الفكرية وآرائه خلال حياته.

كان من أكبر الأسباب التي جعلته يرضخ لرأي جمان هو سعادته لامتلاكه حفيدة ذات لسان طلق ومقبلة على الحوار وتسعى دائما لطرح رأيها بقوة، ثم أنه كان يرغب وبشدة بأن يعطي لجمان شعور أنها استطاعت أن تغير شيئا برأيها رغم صغر سنها ومهما كان رأيها هذا إن لم يؤثر على أحد بشيء سلبي، إلا أنه عقد العزم أنه لن ييأس حتى يقنعها بشكل أو بآخر لاحقا أو أن تقنعه هي.

كان رشيد دائما يحرص على أن لا يمر أي شاب خلال حياته بما مر به هو من أعاصير فكرية ونفسية صعبة حتى وصل لقناعاته الفكرية وإيمانه هذا.

«هل حدوث الأعاصير في النفس والفكر هو أمر محتوم للوصول للراحة النفسية والفكرية ؟ وهل الوصول إلى الطريق المعبد والسهل يتطلب من الإنسان دائما أن يمر قبله في الصحراء ويتحدى عقباتها؟ » كانت هذه الأسئلة دائما ما تطرح نفسها عليه وكانت كلما خطرت له يسكتها بجواب مختلف.

كان دائما ما يتحسر في نفسه ويحدثه صوت من داخله قائلا «لو أنني ولدت بهذه القناعات الفكرية والأيمان منذ البداية لكنت أنجزت الكثير الكثير لنفسي وللناس الآن».

ثم يناديه صوت آخر « لولا وعورة الطريق لما أحسست بفرحة الوصول».

ثم يقول بنفس راضية « الحمدللّه »

٣

الخامس عشر من كانون الثاني عام ١٩٨٥م

مضى اليوم ستة أشهر على تخرج رشيد من كلية الاقتصاد وتخصصه في المحاسبة وتفوقه مع مرتبة الشرف ،عمل خلال الستة أشهر هذه في تجارة والده الضخمة.

يعيش رشيد مع عائلته الثرية المكونة من والده وهو تاجر في أكثر من مجال ويمتلك مجموعة محلات مختلفة في مناطق مختلفة من الأردن، ووالدته وسلمى أخته الوحيدة التي تصغره بسبع سنوات.

سلمى فتاة قريبة جدا من القلب متفوقة في دراستها ومهتمة جدا بها ولكن غير مهتمة بأي ثقافة خارجية، كثيرة الحركة وسريعة الكلام قصيرة على عكس أخيها رشيد، بقي لها سنتان على إنهاء الثانوية العامة، لديها حلم بأن تدرس تخصص التحاليل الطبية وتمتلك مختبرا خاصا بها.

فـي بيت أبو رشيد غرفة طعام فاخرة دهنت جدرانها بإحدى درجات اللون الرملي وكل مكونات هذه الغرفة الأساسية من (طاولة وكراســي وبوفيه ونيش) هي هدية كلاسيكية فاخرة قد أهديت لأبي رشـيد من أحد أصـدقائه الطليان، مكونات الغرفة الأساسية يغلب عليها اللون الخشبي الداكن والزخرفة البرونزية، الطاولة مسـتطيلة عملاقة يحيط بها أثنا عشـر كرسـيا، ظهر كل كرسـي ومـكان الجلوس منجـد بالقماش الأحمر ومطرز بخيوط الحرير البيضاء والصفراء والسوداء بشـكل فني وعلى الطاولة مفرش فاخـر بنفس لون القماش على الكراسـي ، النيش الخشـبي مكون من أربع دفات عليا زجاجية مليئ بقطع الكريسـتال، والدفات السفلية الخشبية بهـا بعضـ مسـتلزمات الطعـام، البوفيه فيه مـرآة عملاقة محيطها خشب داكن مزخرف باللون البرونزي وتعلو البوفيه تحف نحاسية.

أغـدق الله من كرمه اليـوم على المناطـق الجبلية في الأردن ورزقهـم بأمطـار غزيرة جدا كما هو الحـال غالبا في كانون الثاني هنا، جلس رشيد مع عائلته على طاولة الطعام لتناول الغداء بعد عودة الجميع من عمله، الصمت يملأ وقت الطعام كعادتهـم، الـكل غارق في أفكاره وهمومـه، إلا أن هذه العادة دائما ما تقرص نفسـية سـلمى الثرثارة فتحاول خلق فرص لفتـح أي نقاش غالبا ما تبوء بالفشـل، إلا أنها اليوم نجحت

عندما تنحنحت ثم قالت مع مدها لحرف الياء في اسم رشيد «رشـيد ، متى ستتزوج يا أخي ؟ أتخيل أن هذا اليوم سيكون مميزا جدا بالنسبة لي».

ابتسـم رشيد ووضـع يده على خده ونظر إليها وقال ساخرا «غدا إن شاء اللّه».

سـكتت سـلمى وأكملت طعامها مع عدم إعجابها برد رشيد وتصورها أنها فشلت اليوم أيضا في فتح النقاش على الغداء، وما هي إلا لحظات حتى قال والدها «فعلا يا رشيد ، صدقت سـلمى ، سـيكون هذا اليوم مميزا جدا بالنسـبة لنا جميعا، منـذ زمن وأنا أنتطرك لتسـتعد للزواج ثم أنني أشـتاق جدا لملاعبة حفيدي الصغير وأظن أن الوقت قد حان ومن وجهة نظري لن تجد أفضل من هدى ابنة صديقي أبوأياد».

مسك والد رشيد رشيداً من يده التي تؤلمه، فمنذ زمن ورشيد منتبـه لهدى ذات الوجـه الجذاب والابتسـامة الجميلة، ولا يريد رشيد أكثر من ذلك بعد السمعة الحسنة للفتاة.

سكت رشيد قليلا قبل أن يرفع حواجبه ويجيب بصوت هادئ «ولِمَ لا ؟!».

تهلل وجه الجميع وأولهم والدته التي أخذ منها رشـيد صفة الهدوء والسكينة، والتي لم تفتح الموضوع مع رشيد أبدا لأنها كانت ترى في رشـيد الرجل البالـغ العاقل القادر على اتخاذ قرار الزواج في الوقت الأنسب له.

ويبدو أن رشـيداً كان على شـفى أن يفتح هذا الموضـوع مع والديـه لأن ردة فعلـه كانت سـريعة، حيث نهض رشـيد من علـى طاولـة الطعام وغسـل يديه، ثم عاد باتجـاه أمه وقبل رأسـها قائـلا « رتبي وقتـك خلال هذا الأسـبوع لنزور بيت أبوإياد وأنت يا أبي قرر الموعد المناسب وأخبر أمي لتخبرهم وأبلغوني لأكون تحت أمركم ».

همست أم رشيد « الله يرضى عليك يا حبيبي، من عيوني »

❀ ❀ ❀

كان رشـيد متحمسـا جدا لأنه سيتزوج بهدى، فتاة حنطاوية اللون ذات عيون سوداء واسعة وصاحبة خلقة حسنة جميلة، متحجبـة، معتـادة على لبـس البناطيل مع القمصـان، وكان رشيد قد أعجب بأناقتها سابقا.

مضت الأيام بعد زيارة عائلة أبو رشيد لعائلة أبوإياد وتم الاتفاق سريعا والقبول من الطرفين، وتمت الخطوبة بعد أسبوعين من ثاني زيارة بين العائلتين وتم الإتفاق على أن يكون الزفاف بعد ثلاثة شهور فقط لأن العروسين عبّرا عن عدم حاجتهم لفترة طويلة للتعارف فالعائلتان تربطهما ببعضهما علاقة صداقة قديمة.

مضت الشهور الثلاثة سريعا جدا، لم يتعب رشيد في البحث عن منزل فقد كان يمتلك شقة منذ تخرجه من الجامعة وجهزها وأثثها برفقة هدى خلال الثلاث شهور، كانا خلالها لا يفترقان أبدا إلا في وقت العمل وتعرف رشيد خلالها على هدى أكثر.

بالنسبة لأي رجل عادي فإن هدى ستعجبه من ناحية أنها ماهرة في الطبخ ومحبة جدا له وتبحث دائما عن وصفات طعام جديدة لصنعها، إلا أن رشيداً اكتشف خلال الثلاث شهور أن هدى فتاة سريعة الغضب ولا تتحمل نقاشات رشيد الهادئة وتريد أن تنجز كل الأمور بسرعة بلا تأنٍّ، تعمل هدى مع والدها أيضا كما هو رشيد وأبدت استعدادها لترك العمل عند دخولها في عش الزوجية وأيد رشيد هذه الفكرة .

ورغم ما اكتشفه رشيد من تسرع وعصبية هدى إلا أنه لم يتراجع أبدا عن الزواج .

❀ ❀ ❀

بقي ثلاث ليال لحفل زفاف رشيد وهدى، اتصل رشيد بخطيبته:

« آلو ،، هدى كيف الحال ؟ جيد أنك أنت من أجبتي على الهاتف، أعلم أنك مشغولة جدا بتجهيزات الزفاف ولكني محتاج لأن أراك في أقرب وقت».

خافت هدى من رغبة رشيد الشديد برؤيتها وبهذا الشكل المفاجئ فوافقت وقالت له «حسنا لا بأس بعد ساعتين من الآن تفضل إلى منزلنا لأنني سأخرج للسوق الآن مع والدتي لشراء غرض صغير لن يأخذ منا الكثير من الوقت».

جلس رشيد مع هدى في الصالة لوحدهما والتوتر واضح على وجه هدى ولكن رشيداً كعادته هادئ جدا ، قال «هدى اسمعيني جيدا ، أنا فكرت كثيرا وقررت أننا لن ننجب أطفالا الآن، لنؤجل الموضوع قليلا».

ضـحكت هدى ضحكة الارتياح بعد طول توتر وقالت « ألهذا جمعتنا هذا الإجتماع الطارئ !!؟ حسنا كما تريد ربما ترغب بالاسـتقرار التام قبـل الإنجاب وأتفق معـك بذلك لو نؤجل الموضوع بضعة شهور ليس لدي مانع».

رد رشـيد «لا أعدك أن يكون بعد بضـعة شـهور، قد يطول الأمر قليلا لكن لا تقلقي».

«رغـم أن الأمـر بدأ يقلقنـي قليلا لكن لا مانـع» ردت هدى بعدما عاد لها القلق من رد رشيد الأخير.

❁ ❁ ❁

في ليلـة مـن ليـالي شـهر أيار في أحـد الفنـادق الراقية في مدينة عمان وفي أكبر قاعة فيه تقدم رشـيد ببدلته السوداء الفرنسـية الصـنع وحذاءه الأسـود اللامع الأيطالي الصنع وربطة العنق الأنيقة ذات اللون الليلكي الهادئ بعض الشـيء والـذي تحمل العروس مجموعة أزهار بنفس لونه يتخللها أزهار وردية، تقدم ممسـكا بيد عروسـه هدى والتي ترتدي فسـتانها الأبيض الذي سـرق عقول كل الإنـاث في القاعة وكأنهـن لم يرين فسـتان زفـاف من قبـل، كان ببياض الثلج

والكريستال يلمع في أنحاء متفرقة منه وفصل تفصلا مميزا، داسوا بأحذيتهم الفاخرة على السجادة الحمراء الممتدة من باب القاعة إلى الكوشة واتجهوا إلى حياة جديدة لا يعلمون أطويلة هي أم قصيرة لكنهم كما يقال يتمنونها «زواجة العمر»، ومضت مراسم الزفاف كالمعتاد وانتهت الليلة على خير جمع بين رشيد وهدى في شقتهم الخاصة تحت سقف واحد، ليستعدا بعدها للسفر لقضاء شهر العسل في باريس كما اختارت العروس المدللة.

٤

أواخر كانون الثاني ١٩٨٦م

مرَّ ما يقارب التسعة أشهر على زفاف هدى ورشيد، بعد شهر العسل عاد كل منهم إلى عمله حيث اتفقت هدى مع رشيد أنها ستبقى في العمل مادامت لم ترزق بأطفال بعد.

كان رشيد ما زال يؤجل موضوع الأطفال هذا بحجة أنه غير مستعد بعد ليكون أبا مناسبا لأبنائه، وبدأ قلق هدى يزداد وبدأت في الإلحاح وبدأت تغضب كثيرا عند مناقشة رشيد في هذا الموضوع وبدأت معها المشاكل وأصبحت واضحة معاملة هدى الناشفة لرشيد.

«صباح الخير هدى»

قالها رشيد المتوجه ليعد قهوته لهدى الجالسة على مائدة الإفطار.

ردت هدى «صباح النور»

ثم سكتت قليلا وأردفت بحزم «رشيد لن تخرج من المنزل اليوم حتى نحسم الموضوع الذي كدر علينا صفو حياتنا وتبوح لي بكل ما بداخلك عن هذا الأمر فأنا لم أعد أصدق حجة عدم استعدادك لتكون أبا لأطفالنا»

قال رشيد «صدقيني لا شيء يستحق الكلام وعندما استعد سآتي وأخبرك باستعدادي، رجاء لا تضغطي علي أكثر من ذلك ».

رفعت هدى الهاتف واتصلت بحماها أبو رشيد وقالت بعد التحية « عمي من بعد إذنك فإن رشيد لن يأتي للعمل اليوم لظروف خاصة بنا».

لم يمانع أبو رشيد أبدا وسط دهشة رشيد من تصرف هدى المتسرع.

نظرت هدى لرشيد والدمع على حافة عينيها وقالت بحزن واضح في صوتها يخرج من شوق أنثى لأبنائها «أرجوك سأكون هادئة معك ولن أقاطعك لكن قل لي كل شيء كل ما بداخلك...أرجوك» !!

لم يرَ رشيد هدى حزينة وهادئة في نبرة صوتها ولا بنظرات عيونها الدامعة كما هي اليوم، فخضع بما أعطاه الله من رحمة في قلبه لهدى وقال «هل فَرغتِ من تناول الطعام ؟» ردت بسرعة وهي تمسح دموعها «نعم».

سحب رشيد هدى من يدها وأخذها إلى غرفة الجلوس وقال انتظري قليلا وعاد لها بفنجاني شاي بالنعنع وهو المشروب المفضل لديها ثم قال : «هدى يا شريكتي لم تعد نفسي تسمح لي بأن أخفي عنك ما يجول في خاطري أكثر من ذلك، لقد أخفيته وقلت في نفسي لعل تفكيري يتغير مع الأيام أو أن يحدث حادث ما يثبت لي عكس ما أفكر به».

وضعت هدى كأس الشاي على الطاولة ورفعت قدميها وضمت فخذيها إلى صدرها وأطبقت عليهما بذراعيها كالرباط وكأنها تحمي جدران المهد الأول لأطفالها من أن يسمع كلاما إما أن يكون قاسيا أو أن يكون حزينا، وقالت: «هذا ما أريده يا رشيد ، تكلم بكل ما في قلبك».

أخذ رشيد نفسا عميقا قبل أن يتكلم، ثم قال: «لم أكن في يوم من الأيام ممن ينظر لثروته على أنها حاجز بينه وبين تكوين علاقات مع كافة طبقات الناس بظروفهم المادية المختلفة، وتحديدا في الجامعة فإن أغلب أصدقائي كانوا من الطبقات المتوسطة والفقيرة».

ردت هــدى « حســنا وهذا أمــر جيد لم أســتطع تنفيذه في حياتي الجامعية، ولكن ما دخل هذا بموضوعنا ؟».

قال رشــيد « لا تتســرعي فقــد وعدتيني بــأن تكوني هادئة وتســتمعي لكلامــي حتى النهايــة» ، ثــم أردف بعدما أومأت برأســها بالقبــول «حســنا لقــد كانــت الغالبيــة الكبرى من أصدقائي من الطبقة الفقيرة أكثر منها من الطبقة المتوسطة، كنت دائما ما أســتمع لهمومهم وأحاول أن أســاعد من يقبل منهم المســاعدة وكنت أرى معاناة الكثيرين ممن اضــطرتهم الظروف للعمل في المســاء في أي مهنة يحصــل عليها ليكون عمودا مســاعدا في ظهر والده، صــهيب كان أحد أصدقائي وكان ابــن تاجر ثري إلا أن ظروفا غامضــة كانت وراء مقتل والده وهو في المدرسة الإبتدائية واستلم ثروته من بعده أخوه (عم صهيب)، ولكنَّ عمه هذا تسلط عليهم وأخذ كل ثروتهم، ووصــل صهيب للجامعة وهو لا يكاد يمتلك قوت يومه ويعمل مساء ليوفر لقمة العيش لأهله».

ما زالت هدى تســتمع بتركيز وحيرة لحديث رشــيد ومازال عقلها يحاول أن يربط كلامه بواقع موضــوعهم الذي فرغوا يومهم من أجل الحديث فيه.

أكمل رشيد ....

«بصـــراحة مطلقـــة لا أريد أن أنجب أطفالا فيكون نصـــيبهم من الحياة كنصـــيب صهيب المســكين، رغم أنه الآن يعمل في وظيفة محترمة ومتزوج ولديه طفل إلا أنني لا أضمن نفسي لأطفالي ولا أضمن عمري وكذلك لا أضمن ثروتي».

فتحت هدى عيونها أكثر من المعتاد واعترتها دهشة لم تصب بها من قبل، لم تتوقع أبدا أن تسمع من رشيد كلاماً كهذا إلا أنها لم تقاطعه عما يقول..

فأكمل رشيد .....

«بالإضـــافة لأن الحـــروب باتـــت تقوم اليوم بلمح البصـــر ولا أضـــمن أن نعيش بلا حروب طيلة عمرنا ولا أريد لأبنائي أن يموتوا في حرب أو أن ييتموا أو أن يشردوا !»

لم تقل هدى شـــيئا إلا أنها لم تحتمل وجودها بجوار رشـــيد أبدا، لم يخطر ببالها أي جواب لتقوله، وقررت أنها يجب أن تتوقف عن ســـماع رشـــيد الآن وفي هـــذه اللحظة كي لا تخر مغشـــيا عليها، لذلك قامت تركض إلى غرفة النوم وأغلقت على نفسها الباب ودخلت في نوبة بكاء طويلة وعميقة وانتهت بالنوم.

لم يندم رشيد على صراحته بالعكس من ذلك تماما كان أكثر ارتياحا من ذي قبل وكان واضحا في عينيه أنه يريد من هدى أن تناقشه وتقنعه بالأمر ولكن هدى لم تفعل، بقي في مكانه جالسا على كرسيه في غرفة الجلوس ثم ذهب بعد ساعة إلى الغرفة ليجدها مازالت مقفلة، لم يخشَ على هدى أن تفعل بنفسها شيئا فهو يعرف أنها تحب حياتها وأهلها وعملها الذي استعدت أن تضحي به في سبيل أن تعتني بأطفالها ولا يمكن أن تنهي حياتها بسبب أمر كهذا رغم أنه مهم بالنسبة لها.

❀ ❀ ❀

مضى شهران ولم تفتح هدى هذا الموضوع مع رشيد ومارست حياتها معه بشكل طبيعي ورشيد حائر ما بين إعادة فتحه للموضوع معها أو أن ينتظر أن تبادره هي، ولكن بدا له أن هدى تلقت لطمة على وجهها عندما بادرت سابقا إلى فتح الموضوع معه، فقرر اتباع خطة جديدة بأن يدخل أطرافا آخرين في حوارهم هذا، اتصل مباشرة بسلمى ووالدته ليحضرا عندهم في المساء لتناول طعام العشاء وفي نيته أن يفاتحهم ويأخذ رأيهم بما قال لهدى بخصوص الإنجاب.

رحبت هدى بفكرة العشـاء وقامت تحضـر ما لذ وطاب من الوصـفات التي تعلمتها جديدا دون أن تعلم ما يخبئ رشـيد في نفسه من وراء هذه الدعوة.

بعـد الانتهـاء من طعام العشـاء جلس الجميع في الصـالة عند التلفاز ووضـعت سـلمى على أحد مسلسلاتها المفضلة وأحضرت هدى وأم رشيد بعض أطباق الحلويات من المطبخ مع إبريق الشـاي بالنعنع الذي أحضرته أم رشيد من حديقة منزلهم قبل أن تأتي.

بدا رشـيد محتارا كيف يفتح الموضـوع وبدأت الحيرة تأخذه مرة أخرى، أيفتح الموضوع أم لا ؟

لا يريـد أن يعكر صـفو هدى الفرحة اليـوم بزيارة أهله وفي الآن نفسـه لا يريـد أن يبقـي على الحزن الـذي تخفيه في قلبها منذ شهور عدة.

ثم عقد العزم .. وقال:

«سـلمى ، أمي، أعيروني انتباهكما قليلا، وهدى أيضا لأنك سـتتكلمين الآن» تفاجأت هدى وبدا وكأن سـر دعوة العشاء هـذا قد ظهر لها ثم أردف رشـيد « أمـي ، لدي وجهة نظر في موضـوع إنجـاب الأطفال طرحتها علـى هدى ولكن يبدو

لي أنهـا لم تعجبها ويبـدو لي أنه من الطبيعي أن لا يعجبها، تفضلي يا هدى قولي لأمي وسلمى ما دار بيننا».

خليط من المشـاعر بداخل هدى الآن، ما بين مشاعر حزنها الشـديد القديم وبـين فرحها بخيط أمل بـدأ يظهر لها من فكرة دعوة العشـاء هذه وحضـور سـلمى وأمها ليشاركا في الموضوع.

طرحت هدى الموضـوع على الحاضـرين كما طرحه رشـيد تمامـا عليهـا قبل شـهرين وكأنها سـجلته علـى ورقة لتعيد قراءته الآن من شدة ما أثر بها في ذلك اليوم، ثم أعربت عن حزنها بوجهة نظره هذه وعن مدى اشتياقها لأن تصبح أما.

كما كان يتوقع رشـيد فقد قوبل الأمر بصدمة ودهشة كبيرة مـن أمه وسـلمى ولكـن ما لم يتوقعـه هو أن يـرى أمه التي عهد عليها الهدوء والسكينة غاضبة جدا بعدما سمعت كلام هدى، انكب على يد أمه يقبلها ويقول لها : «لنتناقش يا أمي أرجوك لا تغضبي فإما أن أقنعكم وإما أن تقنعوني».

لم تتحمل أم رشيد هذا الموقف ووقفت قائلة:

«هيـا يا سـلمى، لا مجـال للنقاش في هذا الموضـوع ووجهة نظرك مرفوضـة تماما من كل عاقل على هذه البسـيطة، لو

تسمحين يا هدى هل يمكنك إيصالنا للبيت؟، فعمك مشغول ولا يمكنه القدوم الآن».

في السيارة طمأنت أم رشيد هدى على أن عناد رشيد لن يطول وأنه سيرضخ ويكف عن الأفكار الشاذة التي في عقله عما قريب.

عندما عادت هدى للبيت وجدت رشيداً ينتظرها في الصالة، فناداها وقال بارتباك: «سامحيني عما جرى ولكني كنت أتأمل أن أجد حلا للمشكلة بهذه الطريقة ولكن حصل ما حصل».

ردت هدى بعصبية :

«ليس هناك مشكلة أصلا، المشكلة أنت من صنعها ثم تريد تحقيق وإثبات أنها مشكلة بسعيك لإيجاد حلول لها».
فز رشيد من مقعده وقال في لحظة جنون تخلى فيها عن عقله:

«أمي لن يضرها شيئا تشرد أطفالي ولا تيتمهم ولا فقرهم إن كانت ستبقى على قيد الحياة إلى حينها أصلا، أطفالي فقط من سيدفعون الثمن !!!».

قامت هدى أيضا من مقعدها وصرخت:

«لقد سئمت، وعليك أن تختار، إما أفكارك هذه وإما أنا ، وما زلنا في بداية الطريق».

عادت هدى لتحبس نفسها في غرفة النوم كما فعلت منذ شهور بعدما شاهدت في عيون رشيد ميوله للتمسك بأفكاره عن التمسك بها.

٥

الأطفال هم جنة للمنازل وليست جنة الأطفال منازلهم كما يقال، فالمنزل مهما كان حزينا فإن جدرانه تبتسم بمجرد سماعها لصوت بكائهم أو قهقهاتهم.

لم أفهم أنا هذا الشيء في علاقتي مع هدى، وبقيت متمسكا بفكرتي عن الإنجاب، ويبدو أن جدران قلب هدى بدأت تتصدع حزنا وقهرا كجدران منزلنا، لذلك لم نتفق أبدا.

اليوم كان قد مر على انفصالي عن هدى ما يقارب السنة وخمسة شهور، تم الطلاق برضى الطرفين واتفقنا على أن نقنع الكبار بأن لا تفقد العائلتان علاقتهما القوية بسبب انفصالنا وأن الانفصال تم دون تباغض بيني وبين هدى، وبالفعل استمرت علاقة العائلتين وتفهموا الأمر.

استمرت حياتي بشكل روتيني جدا ما بين المنزل والعمل عند والدي والمقاهي مع اصدقائي، لم أشعر بالحزن كثيرا على

فراق هدى وكذلك هي، قمت بتأجير شقتي التي كنت أسكنها مع هدى وعدت لأسـكن من جديد مع عائلتي في بيت العائلة الكبير.

سـلمى الثرثارة المحبوبة للقلب تنتظـر نتيجة الثانوية العامة على أحر من الجمر، وهي واثقة من أدائها المبهر في امتحاناتها ومستعدة لاستقبال حياتها الجديدة في الجامعة بعدما أنهت أول مرحلـة مـن مراحل حلمها، حلمها الـذي يتحقق عندما تحصل على شهادة التحاليل الطبية.

«آلـو.. مرحبا.. كيف الحال يا رشـيد؟ أرجـو أن لا أكون قد عطلتك عن عملك !» المتصل هو وليد الصديق المقرب لي.

قلت مرحبا:
«يـا أهلا وسـهلا برفيق الـدرب ، أنا بخـير الحمدلله كيف حالك أنت ؟ لا يا رجل وقتي كله ملكك تفضل ؟!»

قال وليد:

«وأنا بخير الحمدلله ، بالمختصر حتى لا أطيل عليك، أريدك أن تلبي دعوتي اليوم على فنجان قهوة، لدي صـديق أريد أن أعرفك عليه، تعال اليوم في تمام السـاعة الثامنة إلى المقهى الذي نلتقي فيه دائما».

انتهت المكالمة بعدما وافقت على دعوة وليد.

اعتدت أن أكون دقيقا في مواعيدي، ففي تمام الساعة الثامنة مساء كنت أنتظر وليد في المكان المتفق عليه، على عكس وليد الذي دائما ما يصل متأخرا، بعد حوالي نصف ساعة، دخل وليد ولا يرافقه أحد إلا أنه توقف عند طاولة بالقرب من مدخل باب المقهى وسلم على شخص تظهر عليه علامات الوقار يرتدي بدلة أنيقة وبدأ الصلع يظهر في رأسه أما شعره الباقي فكان مزيجا بين البياض والسواد، بعدما وقف وليد مع هذا الرجل لخمسة دقائق جلبه معه وساروا باتجاهي، سلم علي وليد بحرارة ثم قدم لي الشخص الذي بدوره سبق وليد في تقديم نفسه قائلا بشيء من النرجسية «د. جميل دكتور متخصص في الهندسة الكيميائية في الجامعة الأردنية» أضاف وليد «وهو يكبرنا ببضع سنوات لكن كما تعلم فإن العمر عندي لا يحكم إمكانية الصداقة من عدمها».

صافحت د. جميل قائلا:

«أنا رشيد وقد أنهيت دراسة المحاسبة في جامعة اليرموك وأعمل مع والدي في التجارة في مجالات مختلفة».

جلس الجميع، مضى الوقت في هذه السهرة الممتعة دون أن نشعر به وفي نهاية الجلسة طرح د.جميل موضوعا لفت انتباهي وأثار بداخلي أفكاراً لم تكن مسبقا موجودة وذلك حين قال:

«ينهي أغلب الشباب دراستهم كما أنهيتها أنت يا رشيد وانتقلت لمرحلة العمل دون أن تستمر في إعمار عقلك، العقل من أكبر النعم التي أكرمنا بها الله وتميزنا به عن باقي المخلوقات وسوف يسألنا الله سبحانه عنها يوم القيامة، سيسألنا فيما أعملناه وهل عملنا على إعماره أم هدمناه أم تركناه يصدأ».

ثم صمت قليلا ووجه سؤالا مباشرا حادا لي:

«هل تعتقد بأن المحاسبة هي علم يشغل العقل ويحركه دائما ويزيد من إعماره ؟ أو على الأقل ما حصلت عليه في المحاسبة أي شهادة البكالوريوس فقط !؟».

لم أعرف بما أجيبه فقلت:

«لا أعلم ولكن ربما! ، ثم أنني لست مجرد محاسب بل أنا تاجر ومن المؤكد أنني لا أعمل دون أن أشغل عقلي!».

رد وكأنه يتحداني:

«نعم أنت تشـغل عقلك بمحفوظات قديمة من أيام الجامعة وترسـم في رأسك العلاقات بينها ولكن ليس هنالك أي شيء جديـد وأظن أن صـنع القـرار كله في يد والـدك أطال الله عمره ، وأعيد سؤالي، هل هذه المحفوظات في عقلك هي علم تسقيه وتنميه دائما ويعمر عقلك ويشغله بحيث لا يصدأ؟!».

قلـت: «دعنـي أفكر في الأمـر، لقد أثَرت في عقلي عاصـفة تسـتوجب التفكر والتأمل، واسمح لي بأن أمضي لمنزلي فقد تأخر الوقت وأعمالنا تنتظرنا جميعنا في الغد».

كنت عندما وصـلت لباب المقهى قد نسـيت كل الكلام الذي قالـه د.جميل وكانت العاصـفة في داخلي قـد هدأت تماما، لقـد أثارت هذه الأفكار عقلي للحظـات ثم بقيت مقيمة في المقهى ولم تخرج معي من بابه.

توقفت عجلات سـيارتي عند بـاب منزلنا وأنا في قمة تعبي وأحلم بسـريري الذي ينتظرني ويعطـف علي ويحتوي تعبي ويضـمني حتى الصـباح دون أن يمل، ولكن ما إن فتحت باب المنزل حتى سمعت زغاريد أمي تملأ المنزل وخالتي وأخوالي كلهم في زيارتنا والفرحة ظاهرة على قسمات وجوه الجميع،

دخلت عليهم وعيوني تنطق بالأسئلة قبل فمي، قفزت سلمى باتجاهي وارتمت في أحضاني وقالت:

«السابعة على المملكة يا أخي، السابعة، الحمدلله»

سلمى المرحة اجتازت الثانوية العامة بمعدل عالٍ وحصلت على ترتيب متقدم على مستوى المملكة، يالها من فرحة لم أستطع قبلها أن أحققها لنفسي ولا لوالدي.

مازال أقرباؤنا يتوافدون على المنزل، وبدأ أقارب أبي والمعارف بشكل عام بالحضور، أما أنا فقد أنستني فرحة سلمى كل التعب ويبدو لي من توافد المهنئين أن النوم لن يزور أحدا في منزلنا اليوم، همست في أذن أبي «يبدو يا أبي أننا لن نذهب لأعمالنا في الغد لا أنا ولا أنت» ضحك ثم دفع بظهر كفه الهواء للأمام مع ميلان صغير في رأسه في إشارة تدل على أنه «لا يهم».

استمر استقبال الضيوف والأقارب من المهنئين في منزلنا إلى أن خرج آخرهم في تمام الساعة الثالثة فجرا، عدت إلى الصالة بعد أن ودعته وكان الجميع مستلقياً على الكراسي، نظرنا جميعنا لبعضنا بصمت وتعلو شفاه الجميع ابتسامة الفرح على وجوه مجهدة، فكسر أبي الصمت حين نظر

لسلمى وقال «أهلا أهلا بطبيبة المستقبل» بصوت ممتلئ بالفرح والفخر.

لم تعلق سلمى بشيء على ما قاله والدها رغم أنها مازالت مصرة على حلمها وهو علم التحاليل الطبية.

ذهب الجميع لغرفهم ودخلت في غيبوبة نوم عميقة لم أستيقظ منها إلا في تمام الساعة العاشرة صباحا عندما أيقظتني سلمى لتدعوني على وجبة الإفطار، عدلت جلستي على السرير ووضعت الوسادة خلف ظهري ورفعت جسدي وبدأت أفرك وجهي بكلتا يداي كما أفعل بالعادة لبضع ثواني عندما أستيقظ من نومي وما إن نزعت كفاي عن وجهي حتى وجدت سلمى جالسة على طرف السرير،صامتة وتنظر لمكتبي وكأنها رحلت لمكان آخر، ويبدو أنها رحلت لعالم الجامعة عندما رأت كتبي الجامعية على مكتبي، فقلت:

«صباح الخير دكتورة...»

فانتبهت ونظرت لي بطرف عينها من وصفي الذي لم يعجبها ثم اختارت أن ترد علي برد لن يعجبني فقالت:

«صباح النور، لكن لا تقل دكتورة غدا عندما تتزوج وتنجب سيصبح أبناؤك أطباء أما أنا فلا!»

فقلت: «ولمَ لا تصبحين طبيبة؟!، أنت ذكية ومعدلك بالثانوية العامة يسمح بذلك».
فقالت:«الطب ليس هو العلم الذي أرغب به لعقلي فأنت تعلم أنني أرغب بأن أدرس التحاليل الطبية ولن يمنعني عن ذلك أحد».

سكتُّ قليلا عندما سمعت كلمة «عقلي» من سلمى وعدت في تفكيري إلى كلام د.جميل، يبدوا أن الأفكار التي ثارت في عقلي مساء الأمس في المقهى لم تفارقه كما كنت أظن عند باب المقهى ولكنها نامت قليلا في قاع عقلي إلى أن أتخلص من النعاس الذي كان يسيطر علي بالأمس، كان بداخلي رغبة لشيء جديد سواء كنت مقتنعا بكلام الدكتور جميل أم لا إلا أنني على شفى منعطف جديد في حياتي يكسر حاجز الروتين فيها.

قطعت سلمى سكوتي وقالت: «هل سينتظرانا أمي وأبي على المائدة كثيرا ؟».

قلت لسلمى أن تسبقني ورفعت سماعة الهاتف لأطلب رقم وليد في عمله، وطلبت منه أن يجمعني بالدكتور جميل مرة أخرى واليوم إن أمكن، وقد فعلت ذلك دون تردد وكأن الافكار بدأت تقرص رأسي وأريد أن أواصل نقاشي مع د.جميل،

وفي نفس الوقت تذكرت شغفي أنا أيضا كما هي سلمى في موضوع التحاليل الطبية منذ أن كنت في أواخر مراحلي المدرسية وقرأنا سويا عن هذا التخصص بتفاصيله،وسألت حينها معلم مادة الأحياء في مدرستنا عن هذا التخصص فزاد تعلقي به، فهل هذا العلم يعمر العقل ويبنيه ويشغله كما قال د. جميل أم لا ؟!

❀ ❀ ❀

في تمام الساعة الثامنة التقيت مع وليد ود.جميل في نفس المكان وبادرت أنا وفتحت موضوع العقل من جديد ولقيت من د.جميل تفاعلا قويا ، فطرحت عليه سؤالي قائلا:

«وما هو العلم الذي يشغل العقل ويمنعه من الصدأ برأيك ؟»
صمت قليلا قبل أن يجيب:

«من وجهة نظري أن العلم النافع والذي يعمر العقل ويمنعه من الصدأ هو العلم الذي يحثك على الاستمرار في المعرفة لتصل لأصل الأشياء أو لتصل للعلاقة بين أشياء معينة وهو كذلك العلم الذي يدفع دائما للاكتشاف وربط الأمور ببعضها لتخرج حقائق جديدة أو لاتخاذ قرارات معينة أو لتصل

لحل المشـكلات، وعلوم كثيرة ينطبق عليهـا هذه الأمور مثل الكيمياء والأحياء والهندسـات بشكل عام والطب والصيدلة والتحاليل الطبية والهندسة الوراثية حتى العلوم الأدبية كعلم الأديان ومقارنتها أو حتى العلوم الشرعية بمختلف مجالاتها وتفاصـيلها العميقـة وكذلك العلـوم المالية، كل هـذه العلوم تحثك دائما على البحث المستمر وربط الأمور ببعضها وربما استنتاج حقائق جديدة».

صمتُّ ووضعت يدي تحت ذقني وبدأت بحكها وأنا أهز رأسي للأعلى وللأسـفل وأنظر إلى الطاولة، وصـمتنا عن نقاشنا، ودخل وليد ود.جميل في نقاش آخر وبقيت أنا غارقا في بحر أفـكاري، إلى أن قـال وليد موجها سـؤالا لي «وما رأيك أنت يا رشيد؟».

ابتسمت وقلت: «بصراحة لم أكن معكما ولكني كنت أفكر في كلامـك يا د.جميل ويبدو أنني على وشـك السـير في طريق جديد بل وأن قرارا بإعادة دراستي الجامعية سيصدر قريبا».

تهلل وجه د.جميل وكأنه شعر بنشوة الانتصار رغم أنه نقاش عـادي انتهـى باقتناعي ولم تكـن حربا بيني وبينه لينتصـر إلا أن شخصـيته النرجسـية تفرض عليه ذلك، ثم اسـتفهم

عن التخصـص الـذي أرغب به بعدما نصـحني في أن أكمل الدراسات في نفس تخصصي، قلت له:

«لا أعلـم تحديـدا ولكنـي أميـل لناحية الأحيـاء أو تحديدا أرى فكـري يسـير بي باتجـاه التحاليل الطبية أما بالنسـبة للمحاسبة فبكل صراحة لم أرني يوما منسجما معها بالرغم من كوني متفوقا فيها» سكت قليلا بعد إعجاب الدكتور جميل باختياري ثم أردفت «خطوة كهذه تستوجب التأني والمشاورة» ضرب د.جميل على كتفي وقال:

«أحسنت، لو فعلتها ستكون بالفعل إنسانا عظيما يقدر نعمة عقله!».

❀ ❀ ❀

مـرت الأيـام والأمـر يأخـذ كل تفكيري، أبحـث هنا وهناك وأجلس في جلسـات طويلة مع أصدقائي المتخرجين من كافة الأقسـام العلمية وأركـز على المتفوقـين في التحاليل الطبية وأعود لأناقش د. جميل الذي أصـبحت تربطني به صـداقة قويـة، ،قـررت في نهاية الأمـر أن أدرس تخصـص التحاليل الطبية، سرت سلمى بالخبر جدا كوننا سنصبح زملاء ولقيت الرضـى مـن أمـي وأبي، طلبت مـن أبي أن يوظف شخصـا

غيري ليقوم بأعمالي وأن يمنحني وظيفة مســائية مريحة لا تحتــاج مني جهدا كبيرا رغم أنه ابدى اســتعداده لأن يتكفل بمصاريفي في الدراسة دون حاجتي للعمل إلا أنني رفضت.

تم قبولي أنا وسلمى في نفس الجامعة وهي الجامعة الأردنية، في تخصــص التحاليــل الطبية، لنبــدأ معا مشــوارا تعليميا جديدا.

٦

كثرة العلم لا تضر بل على العكس تماما، أما مجال استخدامك لما تعلمته هي التي قد تضر، (وعن علمه ماذا عمل به) ، إذن فإن علمك يضعك محل مسؤولية منه، يسلم نفسه لعقلك ويترك لك الخيار إما أن يكون حبلا تتسلق عليه للأعلى أو أن يكون حبلا تظن أنك تتسلق عليه للأعلى بينما هو يقيدك ويشدك لأسفل سافلين عاجلا أم آجلا.

بدأت مشوارا جامعيا جديدا برفقة زميلتي سلمى، دراستي معها في نفس التخصص ومرافقتها لي في الجامعة و في السيارة ذهابا وإيابا من الجامعة جعلت مني ومن سلمى صديقين قريبين جدا من بعضنا أكثر من ذي قبل.

اعتدنا على الدراسة سويا، إما في غرفتي أو في غرفتها، أصبحت أقضي مع سلمى ثلاثة أرباع وقتي، بالرغم من تعرفي على الكثير من الأصدقاء في الجامعة إلا أنني أحسست أنني غير قادر على الاندماج معهم بحكم السن وبحكم تجاربي

القليلة التي مررت بها في الحياة، إلا أن سلمى لم أشعر معها بهذا الشيء، فاكتفيت بها وبأصدقائي القدامى.

أبي وظف شخصا آخر ليقوم بأعمالي ومنحني عملا أستطيع إنجازه في المنزل وأتقاضى عليه راتبا قد يكون مبالغا به بالنسبة لمجهودي.

أصبح لحياتي نكهة مختلفة قليلا عن ذي قبل.

كنت شديد الاجتهاد في دراستي ولا أكتفي بما آخذه في الجامعة بل كنت دائم البحث في الأمور التي تخص تخصصي، كان د.جميل دائما يحمسني وكنت أرى نفسي وأنا أطبق كلامه على العلم الذي أدرسه، أحسست فعلا بأنني أشغل عقلي وأربط الحقائق في بعضها وأحلل الأمور وأتمتع بما أدرسه فعلا، لم يعد يومي روتينياً كما كان في السابق، فرغبتي اللامتناهية في البحث والتعلم كسرت حاجز الروتين.

تفوقت على سلمى في أول سنتين لنا في الجامعة، وبقي وضعي مع سلمى على حاله إلى أن تعرفت سلمى على صديقة جديدة لها في الجامعة وهي في نفس تخصصنا وتسكن في نفس حينا وبدأت تكثر زيارتها لها للدراسة وأصبح جلوسي

مع سلمى قليلا جدا لأنها تقضي أغلب وقتها في الجامعة وخارجها مع صديقتها الجديدة.

ازدادت العلاقة والصداقة بينهما مع مرور الأيام وبدأت لا أكاد أرى سلمى في الجامعة إلا برفقة صديقتها الجديدة وحتى دراستها أصبحت كلها مع هذه الفتاة في منزلها، طبعا لم يحزني ذلك بل أصبحت أكثر قدرة على الإنجاز في ساعات دراستي لأنني تخلصت من ثرثرة سلمى.

صديقة سلمى الجديدة هي شام، وهي فتاة من نفس عمر سلمى، بيضاء الوجه ذات عيون بندقية اللون، نحيلة وذات قلب حساس جدا، نشيطة جدا وفي نفس الوقت هادئة وخجولة، دائما ما تحب عمل الخير بما يتناسب مع مبادئها، محبة للاطلاع والثقافة الخارجية سواء في تخصصها أوخارج حدود تخصصها، القراءة تأخذ الكثير من وقتها، تمتلك بحة حزينة في صوتها، معتادة على لبس العباءة السوداء وأحيانا الجلابيب الأنيقة، سمحة الوجهة تلفت نظر القلب فيرتاح لها.

عندما علمت أنها تسكن بجوارنا وأنها تتنقل في المواصلات العامة طلبت من سلمى أن تعرض عليها مرافقتنا في الذهاب والإياب للجامعة وأن ذلك لن يكلفنا شيئا أبدا فوجهتنا واحدة

ثم أنهم جيراننا وهذا واجبنا، إلا أن شـام رفضت، فتوجهت سـلمى بالأمر لوالدة شـام وهي حاجة كبيرة جدا في السـن لم يبـقَ من أبنائها عندها في المنزل إلا شـام الصـغيرة وأما باقي أبنائها فخرجوا ليواجهوا حياتهم الجديدة مع زوجاتهم وأزواجهم.

رفضت أم شـام الفكرة ثم قبلتها بعد إلحاح سلمى ومشاورة والـد شـام، وخصوصـا أن هناك معرفة خفيفـة بين والدي ووالدي شام بحكم أنهم سكان نفس المنطقة تقريبا.

كانت شـام دائما هادئة في السيارة لا تتكلم إلا عندما تدخل حيث تلقي التحية وإذا سـألتها شيئا أجابت باختصار شديد جدا فأصـبحت مـع الوقت أخجل مـن نفسـي أن أوجه لها الـكلام، أخجل من خجلها ووقارهـا وعدم رغبتها في الكلام معي.

أخبرتني سـلمى أنها حدثت شام عني وعن شغفي بالدراسة وعن قصـة زواجي فكانت ردة فعل شـام أنهـا أعجبت جدا برغبتي بإعادة الدراسـة ووصـفتني بالمثابر ولكنها على حد وصـف سلمى غضبت غضبا شديدا تماما كغضب أمي علي يوم أن طرحت هدى عليها وجهة نظري في الإنجاب.

كسرت شام عادتها معي في السيارة في يوم من الأيام وبشكل مفاجئ وبدون مقدمات حيث طرحت سؤالا موجها لي شخصيا أحسست بتفاهته في البداية، قالت بشكل يخلط بين الجدية واللطف:

«ألست مسلما يا سيد رشيد؟»

اعتقدت في بداية الأمر أنها تريد أن توجه لي عظة لمعرفتها بتقصيري في أداء الفرائض كما نقلت لها أختي الثرثارة التي لا تبقي لسانها في فمها إلا نادرا، فأجبتها:

«نعم الحمدلله، وأعلم أنني مقصر في عباداتي لله وأعمل على إصلاح ذلك».

قالت: «قواك الله، ولكن ليس هذا غرضي من السؤال، بصراحة لا أحتمل أنا أرى فكرة واضحة الخلل دون أن أفعل اتجاه صاحبها ما هو علي وأحاول تعديلها له!».

ظهرت الحَيْرة على وجهينا أنا وسلمى وقبل أن نقول شيئا أردفت شام «كيف لمسلم أن يفقد ثقته بربه ويفقد التوكل عليه؟ قد تكون مسلما ولكن إيمانك لم يتمكن من أن يمنحك تلك الطمأنينة الناتجة عن تسليم أمرك لله، أقصد بهذا أن أتكلم عن فكرتك عن الإنجاب».

قلت سريعا مستوحيا مما درسته في منهج التربية الإسلامية في الثانوية:

«نعم أنا متوكل على الله ولكن أقوم بالأخذ بالأسباب كما تعلمنا ...»

قاطعتني...

«إذن لا تركب السيارة واعتبر ذلك أخذا بالأسباب لكي تتجنب الحوادث، ولا تأكل واعتبر ذلك أخذا بالأسباب حتى لا تعلق لقمة في حلقك فتخنقك».

لم أسمع في حياتي قبل ذلك اليوم صوت شام كما سمعته لهذه المدة الطويلة في ذلك اليوم، كانت تتكلم بحرقة وكأنها كانت تخبئ الكلام منذ زمن طويل أو كأن الموضوع يخصها هي شخصيا.

بقيت سلمى صامتة وتلعثمت أنا ولم يخطر ببالي رد إلا أن أقول « لا ... تعلمي للقيادة جيدا قبل ممارستها هي أخذي بالأسباب، وتمهلي عند تناول الطعام هو أخذي بالأسباب».
قالت بحماسة: «جميل جدا وأحسنت الإجابة وأتفق معك، وبذلك يكون أخذك بالإسباب هو عملك بجد لتوفر متطلبات

الحيــاة لأبنائــك ولتدخــل عليهم دخلا جيدا وبــأن تبتعد في حياتك عن المشاكل والنزاعات لكي لا تعرض نفسك للخطر لا سمح الله، وهكذا تكون أخذت بالأسباب وتوكلت على الله أما رفضــك للإنجاب فهو تماما كرفضك للأكل ورفضك لقيادة الســيارة وهذا ينقلنا لموضوع آخر مهم وهو أن كيف لشخص متعلــم مثلــك أن يرفض الإنجــاب لأنه يخشــى الحروب، إن أبناء مجتمع اليوم بعاداتهم وأهتماماتهم وأفكارهم ما هم إلا نتيجة فكرة آبائهم عن الإنجاب، فالذي يريد أن ينجب لينجب فقط ينتج فرداً عادياً جدا إن لم يكن مفســدا وســيء الخلق وعالة على المجتمع إن لم ينهض ويحرر نفسه بنفسه، أما من فهم الإنجاب على أنه رحمة من الله نزلت من الســماء لتبني عليها خيرا في الدنيا والآخرة، فســيهتم بتربية أبنائه أحسن تربية ليكونوا أصحاب عمل ونفع وخلق حسن، وليكونوا على أهبة الاستعداد للتصرف المناسب في كافة المواقف، فيعلمهم دينهــم ويعلقهم به وبوطنهم ومتــى حدثت الحروب وجد ابنه ناصــبا قامته حاملا الســلاح في وجه من يريد التعدي على الوطــن أو الديــن أو يرغب بخرابهما، وهكــذا يكون التوكل، حاور نفســك وقلب أفكاري في عقلك وقرر ما هو هدفك من الإنجاب وانظر إلى مقدار ثقتك بالله وأنا واثقة أنك ستعدل من أفكارك هذه لأنها ما هي إلا ردة فعل لواقع مؤلم شاهدته في عينة صغيرة من أناس مروا في حياتك».

نزلت شام من السيارة وبقيت أنا وسلمى ننظر لبعضنا البعض منبهرين مما قالته شام، تمنيت لو أن شام تعيد ما قالته لأسجله وأدرسه جيدا كل يوم، تخيلت لو أن شام كانت مدعوة مع أمي وسلمى للعشاء عندما أخبرتهم هدى عن مشكلتنا، تخيلت لو أننا حللنا الموضوع يومها بمثل هذا الجواب النموذجي الذي سطرته شام بصوتها المبحوح ليدخل في أذني ويبرق ويرعد في دماغي فيصعق أفكاري الساذجة ويقضي عليها، أحيانا نكون بحاجة لكلمات بسيطة فقط لنخرج من أمواج أفكارنا المتلاطمة لبر الأمان، لم يحتج الأمر مني تفكيرا طويلا قبل أن أغير نظرتي للإنجاب.

عادت شام لعادتها بالصمت في سيارتي ولم أعد وأفتح الموضوع مرة أخرى معها ولم أخبرها بتغير أفكاري إلا أنها علمت ذلك من سلمى وأخبرتني سلمى بأن شام فرحت جدا بهذا التغيير واعتبرته إنجازا لها كما قالت سلمى بتعجب !

كانت هدى قد تزوجت بعد سنتين من طلاقنا بأحد أقاربها وسافرت معه للخليج وبلغني أنها أصبحت أما لطفل وسعدت بهذا الأمر وباركت لها شخصيا بذلك عندما قمنا بزيارة عائلية لعائلتهم وكانت هي أيضا في زيارة لعائلتها مع طفلها.

❀ ❀ ❀

مرت سـنوات دراستنا أنا وسلمى وشـام بسرعة كالريح ولم نشعر بها أبدا، تخرجنا بعد أربع سنوات من الدراسة بالجد والاجتهـاد، كنـت قـد اتفقت مع سـلمى بأن نسـعى لافتتاح مختبرنـا الخاص بعد التخرج وطرحت هـي بدورها الفكرة على شام لتشاركنا والتي بدورها تحمست جدا للفكرة، اتفقنا أن نتـدرب لعدة سـنوات في مختبرات مختلفـة وأن يركز كل منـا على بعض الأفرع من التحاليل الطبية ثم نقوم بعد ذلك بافتتاح المختبر بحيث تكون ملكيته لنا وبإدارة أحد أصدقائي الذي أنهى الماجستير في العلوم الطبية المخبرية في أوروبا.

عاد موضـوع الزواج يلمس أفكاري، وأصـبحت متشوقا جدا للزواج والإنجاب، وأول من خطر ببالي هي شام، وكنت أميل لها ميلا قويا لم أشـعر به سـابقا بالنسـبة لهـدى، وافقتني سـلمى بسـعادة شـديدة وكذلك والدي وتحديدا أمي، إلا أن سلمى خشيت من رفض شام لأنها على حد قول أختي تمتلك أفكارا ومبادئا وأسـلوبا للحيـاة مختلفا تماما عن حياتنا، لم أهتـم كثـيرا لكلام سـلمى، وأقبلت على خطبة شـام بتفاؤل وثقة كبيرين.

٧

استمرارية دخول الهواء وخروجه من رئتيك يعني استمرارية احتمـال أن تعيش حياة مختلفة عن حياتك السـابقة سـواء بإرادتك أو بقوة الظروف أو بأشخاص يمسكون بيدك، أو بأن يجتمع لك كل ما سبق.

شـام فتاة ثابتة جدا على مبادئها لا تغيرها لأنها لم تتخذها إلا بعـد اقتنـاع تام بها، مقبلـة على القراءة بصـورة لم أكن أتصورها من قبل، بعيدة جدا عن المادية فلم أرَ فيها ما رأيته في بنـات جيلهـا من الحرص على الشـكليات إلا أنها ورغم بساطتها تبقى حريصة على مظهرها الأنيق والنظيف، لأنها كما تقول أن هذا حق نفسـها عليها وأيضـا هو حق الآخرين عليها.

قمـت ببناء منـزل مكون من طابقين وأمامه حديقة صـغيرة في منطقة الجبيهة، عملنا أنا وشـام على تأثيثه، كانت شـام صاحبة ذوق عالٍ في الأثاث وكانت في اختياراتها دائما تبتعد

عـن الضـخامة وتختار الأثـاث اللطيف والأنيق والمتناسـق، أصـرت على أن يكون في منزلنا مكتبة ضـخمة بعض الشيء تأخذ من المسـاحة غرفة كاملة في الطابق الأرضي، وأعطتها اهتمامـا خاصـا لتظهر في النهاية بالشـكل الـذي ترغب به تماما.

لا تسـتطيع شـام العيش بلا نظام محدد ليومها تسير عليه، ونظامها هذا صـنع لها نظام حياتها كله، قالت لي ذات مرة أن هذا النظام يقوم على أسـاس أن لا تظلم نفسـها وبشكل أوضـح قالت لي، أن الله أعطاها عقلاً وجسداً وقلباً وروحاً تتغلغل في كل هذه الأشـياء وحملها مسـؤولية عظيمة ووجب عليها أن تبني حياتها على أسـاس اسـتغلال العقل والجسد والقلب والروح بالشـكل الصـحيح وبذلك تكـون قد تحملت المسـؤولية على أكمل وجه ولم تظلم نفسـها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

❀ ❀ ❀

الفجر هي أكبر صـورة كونية تعبر عن الأمل، تحول تدريجي مـن الظلام إلى النور، ومن السـواد إلى البياض، ومن النوم والخمول إلى العمل والسـعي والجد والإجتهاد، أهل الخمول استسـلموا لقيودهـم وناموا عن هذه الصـورة ليسـتيقظوا

لاحقا مشتكين من انعدام الأمل في حياتهم ومن التشاؤم المزمن، أما أهل العزم فكسروا تلك القيود بل واقتلعوها من أرضها وألقوا بها جانبا ونهضوا ليتأملوا الصورة الكونية الأكبر للأمل.

الفجر هو بداية اليوم بالنسبة لشام، تعيش فيه أجواءها بشكل يدفعها للحياة بقوة مع إشراقة الشمس، بالنسبة لها كان القرآن بين فترة الفجر والشروق يمثل شمسا ساطعة على النفس تبدو فيه أكثر وضوحا من أي وقت آخر.

بدأت أستيقظ معها فجرا بعد ما يقارب الأربعة أشهر من زواجنا، تلك الحورية التي ترتدي ثوب صلاتها الأزرق المنسدل من رأسها إلى أخمص قدميها، تبدو تماما كالسماء،ووجهها الأبيض كساحة ثلجية تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها، قالت لي ذات يوم ونحن نجلس في صالة المنزل بعد الفجر قرب الباب المؤدي للحديقة ونسمع زقزقة العصافير في الخارج :

«لم يدرك أحدا قيمة الفجر أكثر من العصفور، يحلق وهو حر طليق دون أي قيود تقيده، أدرك أنه وقت رزق وجمال وسعادة، فاستيقظ فرحا بقدومه مسبحا بحمد ربه، ولو أنه نام عن الفجر لبقيت أقدامه ملتصقةً في الأرض طوال اليوم، وكذلك هي أرواحنا».

عودتنـــي زوجتي شـــام علـــى أن نخرج كل يوم من بعد صـــلاة المغرب لنسير في جولة سريعة في المنطقة المحيطة بنا، نمشي بين المنازل والأراضـــي الزراعية، أحيانا نقضـــي بعض الوقت صـــامتين ولكـــن غالبا ما كانت النقاشـــات حاضـــرة، نمر في سيرنا في منطقتنا الجبلية على المطل، واد تحيط به الجبال، منظـــر يمتلـــك الروح، نقف قليـــلا عنده نتأمـــل روعة المكان، نقفل عائدين لنصـــلي صلاة العشـــاء في المسجد القريب من منزلنا قبل أن نعود للمنزل.

وضعت شـــام على خطتها المســـتقبلية حتمية القيام بتمارين يومية رياضـــية ولو لمدة قصـــيرة وقالت أنها ستخصص ركنا خاصـــا في المنزل لذلك، وكانت تنتقي طعامها بدقة وتحرص أن تبتعد عن كل ضـــار، لم يكن ذلك بذخا وإنما حرصـــا على الجســـد الذي هـــو أمانة يجـــب أن تحافظ عليهـــا كما كانت تقول، حدثتني يوما قائلة :

«حزني فائض على من يلبســـن الجلابيـــب ليخفين تحتها ما يخفين من سوء أخلاقهن، وحزني هذا لا يقل على من لبسن جلابيبهن ليخفين خلفه طبقات من الدهون المترهلة بعضـــها فوق بعض سواء قصدن ذلك أم لم يقصدن».

نشاطنا في يوم السبت مختلف تماما عن باقي الأيام، نخرج في تماما السابعة والنصف من المنزل، نستقل المواصلات العامة إلى البلـدة القديمـة، متوجهين إلى مطعـم الحمص والفول والفلافل الأشهر في الأردن، مطعم هاشم، يستقبل زواره منذ عشـرات السنين، من كل طبقات الشـعب، الكل هناك ينظر إلى طاولتـه، الكل منهمك في أطبـاق الطعام التي تفوح منها رائحة عراقة المكان، نتناول أنا وشام الفطور هناك ثم نخرج مشـيا إلى مكان عريق آخر، كشـك الثقافة العربية لصاحبه حسـن أبوعلي، رجـل عجوز مجعد الوجه لديه شـعرٌ أبيضٌ يـرده للوراء ويرتدي نظارات طبية، يعشـق القراءة ويسـخر عمره في سـبيل تثقيف الناس، يسـميه البعض وزير الثقافة الشعبي، لا يوجد كتاب في مكتبته إلا وقرأه، لا تهمه الماديات كثيرا، قد يبيعك كتابا إضافيا بسعر كتاب واحد إذا ما شعر برغبتك بالكتاب وعدم قدرتك المادية على شرائه، كان يعرف شـام جيدا، كانت تتردد عليه دائما لشراء الكتب سواء وهي في المدرسة أم في الجامعة، نشتري من هناك بعض الكتب ثم ننتقل بالمواصلات إلى مكتبة أخرى كانت تجد فيها شام ما لا تجده غالبا في المكتبات الأخرى فنضيف بعض الكتب إلى ما كنا قد اشتريناه من الكشك، نقفل عائدين إلى المنزل، وهكذا بدأنا نزيد ثراء مكتبة منزلنا المتواضعة.

أما يوم الخميس من كل أسـبوع كان هو يوم الأصدقاء، كانت شـام تطلب منـي أن أغادر المنزل مع أصـدقائي طوال اليوم وتلتقي هي بصـديقاتها الأقـرب إما في المنزل أو خارجه، لم تتخلى يوما عنهن، كانت محتفظة بداخلها بمكانة خاصة لهن وتشـعر بالحزن اتجاه من تزوجن وقطعن أي رابط للصداقة بعد الزواج.

أما يوم الجمعة فكان مخصصاً لرؤية عائلتينا.

«ألا تملين أو تشـعرين بالكسـل من تكرار كل هذه الأمور في يومك يا شام !».

سؤال كان يتردد دائما على مسامع شام ،إلا أنها كانت تجيب دائما:
«من بنى نظام حياته بكل ما فيه من عادات على عقيدة ثابتة في قلبه قبل أن تكون رغبة جسدية سيشعر بمتعة ما يقوم به ولن يمل بل على العكس تماما سيصـبح كل يوم أكثر إصرارا عن سابقه».

❁ ❁ ❁

اليوم هو اليوم العشرون من شهر شباط وهو الذكرى الشهرية السادسـة لزواجي من شام والذي كان في العشرين من شهر

آب من العام الماضي ، بعيدا عن أننا نخرج كل سبت ونتناول إفطارنا سـويا إلا أننا كان من عاداتنا لكسـر بعض الروتين أن نخرج للعشـاء ولو كان بسيطا في الخارج في كل شهر وفي هذا اليوم تحديدا من الشـهر ونسـتمر على هذا الأمر قدر المسـتطاع مالم تلهنا الحياة ومتطلباتها عن هذه العادة، لدي مهمات كثيرة يجب أن أنجزها اليوم في المختبر، أخبرت شام أنني سـأتأخر لما بعد صلاة العشاء واتفقنا أن نلتقي في أحد المطاعم مسـاء لتناول طعام العشـاء سويا، وفي المساء أنهيت عملي وتوجهت لمحل بيع الزهور واشـتريت باقة عملاقة من الورد الجوري الأحمر، باقة فيها ما يقارب الثلاثين وردة، ثم أتجهت للمطعم كمـا هو متفق مع زوجتي ووجدتها تنتظرني علـى الموعـد تماما، قدمـت لها الباقـة، احتضـنتها كطفلة صـغيرة تحتضن عروستها الصغيرة، ثم وضعتها على إحدى الكراسي المحيطة بالطاولة وبقيت واقفة في مكانها، وقالت: «خبـأت لك أمرا إلى حـين حلول ذكرى مميزة كهذه فأطلعك عليه».

ثم أنزلت رأسـها للأسـفل وأغمضت عينيها ومطت ابتسامة لطيفة على شـفتيها ووضـعت كفيها على بطنها، وأنا مازلت واقفا أراقب مشـهدها الملائكي، تعيش لحظات من الخشوع، شعرت أنها غابت تماما عن الوجود، ثم رفعت رأسها ونظرت لأعلـى ثم نظرت باتجاهي وعيونها تلمع بدمعة فرح توشـك

على السقوط ثم قالت:
«علمت بذلك قبل أسبوعين فقط من الآن وهو الآن في الشهر الثاني».

كان ذلك الخبر هو الأسعد في حياتي كلها، صنعت لي شام صورة مختلفة تماما عن الإنجاب، جعلت قلبي ينبض شوقا لأن أعيش حياة جديدة مع شخص يقول لي «بابا»، شكلت صورة داخل رأسي شديدة الجمال لذلك القلب الجديد الذي سيشاركنا نبضات قلبينا في المنزل، زرعت في ذهني فكرة أننا رزقنا كنزا من الله علينا أن نحافظ عليه ونؤدي ما علينا اتجاهه، هكذا هي دائما كانت تربط كل شيء بالعالم الآخر في الأعلى.

لم تجبرني شام يوما على أن أتبع نظامها إلا أنها بلطفها وحكمتها وصبرها وأسلوب حوارها بدأت تجرني شيئا فشيئا لنسير معا.

كنا نجلس كل يوم بعد العشاء في المكتبة فإما أن يمسك كل منا كتابا ويقرأ وإما أن نكمل حوارا كنا قد بدأناه أثناء سيرنا بين المغرب والعشاء وإما أن تبدأ حوارا جديدا من حواراتها العميقة التي كنت أشعر أن عقلي أصغر منها أحيانا، كانت تحاورني في شتى المجالات، كانت تحب التاريخ

جدا وتخبرني الكثير الكثير عن قصص من الأندلس وأحيانا عن قصص الأنبياء وأخرى من حقب زمنية مختلف، ما كانت تخلو القصة من إسقاطات على حياتنا هذه الأيام وعن ربط التاريخ بالحاضر، كانت تسعى دائما لأن تنزلني من السطحية التي أعيشها إلى العمق.

في كل حوار كنت أخوضه مع شام كان يكون لها النصيب الأكبر من الكلام، كنت سعيدا جدا بذلك، أريد أن أسمع أكثر، أريد أن أصل لراحة الصدر والسعادة التي تمتلكها، أريد أن أرافقها في رحلات عقلها، أريد أن أعيش لحظات الخشوع كما تعيشها هي، أريد أن أرى الحياة من شبكية عينيها، قد لا أفهم كلامها أحيانا، ولكني كنت ألمس فيه كل معاني الرقي، كنت ألمس بياضا وحرية وارتفاع وسعادة وراحة.

سألتها يوما عن خشوعها فقالت:

«حاول دائما في كل لحظة من حياتك أن تخرج من نفسك وتنظر لها وسط الكون، لا تسجن نفسك داخل جسدك،اتبع روحك التي ستتوجه تلقائيا إلى أعلى، لحظات الخشوع ليست لحظات تخلي عن العقل كما يظن البعض بل هي تفكير عميق ينتج عنه إعادة للحسابات وبأدق التفاصيل، حالة تصل فيها

لرغبة بالسكوت والسكون التام، لأنك ستشعر بنوع من غربة الروح بين حبات الطين المتماسكة، لتصل في النهاية لصورة نفسك الحقيقية ولسبب وجودك ولحجمك الحقيقي وقيمة الحياة التي تعيشها بأدق تفاصيلها، يجب أن ترى بكل وضوح من أين جئت ولماذا جئت وبناء على ذلك تختار الطريق الذي ستسير فيه لا أن تمشي في أي طريق يظهر لك كما كان يمشي إيليا أبو ماضي صاحب قصيدة (الطلاسم) ، يجب أن يوصلك خشوعك لهذا وإلا فلا يسمى خشوعا!»

❀ ❀ ❀

ومع الوقت بدأت أشعر أنني لم أكن أعيش فعلا من قبل، هناك شيء ما بداخلي يبدو أكثر ارتياحا من ذي قبل، شيء ما كان موجودا ولكن كان مكبلا بحبال طينية قديمة منذ زمن بعيد، كان هذا الشعور يزداد يوما بعد يوم منذ أول مرة سمعت فيها صوت شام، هناك مفهوم آخر للحياة بكل تفاصيلها بدأ بالظهور، هناك معادلة كونية ضخمة نسير عليها شئنا أم أبينا وصدقناها أم لم نصدقها، عنصران في داخلنا يتغلغل أحدهما داخل الآخر ويشدنا كل منهما إلى اتجاهه، أحدهما اتجاهه الطيران والآخر اتجاهه الغرق.

الــروح تأخذ مجدها وتجري جريــا وراء من يريحها ويعزلها عن أي شــيء يشــدها للأســفل، فكيف إذا وجدت شخصــا يحــول لها كل شــيء في الحياة لحبال آتية مــن موطن الروح الأصلي حيث البياض والنقاء وحيث تعيش الملائكة.

كانت تردد دائما « مع كل حبل تتمســك به من الســماء وتبدأ تدريجيا تتسلق عليه ستصل لمكان ما في الأعلى لا يهم ما هذا المكان ولا مواصــفاته، المهم أن فيه معنــى آخر للحياة، حيث التفسير الحقيقي للسعادة، تفسير يختلف عن أي تفسير كنت قد فسرته ســابقا لها، معنى يصعب عليك شرحه للآخرين، قطرة عطر تقطر في صــدرك فيفوح عبيرها، وتحيط القلب فينشرح لها فتتغلغل به».

بدأت أقترب أكثر وأكثر من أسلوب تفكيرها وأحاول أن أصنع في داخلي صــوراً شــبيهة بتلك التي تتصورها شام لكل شيء حولها، كانت دائما تحرص أن تبعدني على المادة التي يلمسها الجسد وتأخذني إلى ما تلمسه الأرواح، كان في داخلها حرقة شديدة على الفهم المادي للدين الذي انتشر كثيرا بين الناس، لدرجة أن الدين أصبح عادات لا أكثر ولا أقل، حركات خاوية تؤديها في صــفوف منتظمة في مكان مخصــص لذلك، قالت لي ذات مرة ونحن نجلس في المكتبة بعد صلاة العشاء وننظر

لصــورة الســماء الصــافية المطبوعــة على الجدار ونســتمع لصوت ماء النافورة الصغيرة :

«إنك تظلم نفسك عندما تحرمها من جوهر الطاعات وتختصر العبادات بحركات خالية من رحلات الروح، تثير اســتفزازي تلك الصــور التي تؤكـد الفهم المادي البحــت للعبادات، هنا نخلة ســاجدة وهناك شجرة راكعة، إنهم يؤكدون أنهم أخذوا من الســجود والركوع شــكله فقط، المادية أغرقتنا وسيطرت علــى مفهومنا للديــن والروحانية توشــك أن تحمل حقائبها وترحل».

ســكتت قليلا ووضــعت يدها على جبينها وأغمضــت عينيها لثواني وأخذت نفسا عميقا ثم أردفت:

«كثــيرا مــا أشــعر أن العبــاد يمنون علــى الله الغنــي عنهم بعباداتهم، نســوا موقعهم تماما في هــذه الدنيا وأنهم جاؤوا عليها عابري ســبيل بأمره ســبحانه، ونسوا أن كل جزء منهم سيعود إلى أصله في النهاية، الجسد في أعماق الأرض والروح إلى السماء بين الملائكة بقرب الرحمن، تخيلوا أنهم يعيشون دور البطولــة في فيلــم الحياة وأنهم لن يموتــوا إلا بعد موت جميــع ممثلــي الكومبارس ولم يتخيلوا أنهــم هم الكومبارس بالنسبة لغيرهم وأن الموت قادر على خطفهم في أي ثانية دون

مقدمات وبدون سـبب، تجاهلوا هذه النهاية الحتمية، ونسوا أنهم بحاجة مسـتمرة للاتصال بالودود، وأنهم لا يتسطيعون تحريك أصـغر مفصـل في جسـدهم إلا بإذنه سبحانه، ولم يعلمـوا أن الـروح بحاجة إلى رحلات مسـتمرة إلى السـماء تحضـيرا لإقامتهـا الأبدية هنـاك، ولا يكون ذلك بالصـلاة فقـط وإنما بتحويل كل شـيء في الحياة إلى صـلاة بمعناها الروحـاني الحقيقي أي الخشـوع التام وربط العالم الدنيوي بالعالم السماوي».

ثم قالت العبارة التي أصرت أن ننقشها فوق باب المكتبة دون أن أفهم معناها:

«عشـ حياتـك السـماوية قبل موتـك واعمل ليبـقَ وجودك الدنيوي حاضرا للأبد».

كلامها كان يصدمني، يريحني أحيانا ويفزعني أحيانا أخرى، يدخلني في دوامات فكرية شـديدة جدا، أحيانا أشـعر معها أننـي لا شـيء وأحيانا أشـعر أنني كل شـيء، لم أنم ليلتها، شـعرت أنني وحيد جدا، وإن لم يكن الآن فسيكون لاحقا في مكان آخر سـأنزل له، كانت الصورة في رأسي سوداء قاتمة، لم أتخيل كيف سـيندمج جسـدي مع أصله تحت الأرض، إلا أن الجانب المضـيء من حديث شام كان يخفف هذا السواد،

ولكني لم أستطع في يوم من الايام أن أشعر بما قالته شام عن رحلات الروح للسـماء التي ستمسح كل الصورة السواد التي تكونت عن ما تحت الأرض، ما السـبيل ؟ تضارب لا يوصف داخل رأسـي، هل من مفتاح أم أنني سـأجد نفسـي وبشكل مفاجئ على الطريق المضـيء؟ هل سيسـبق فعلي شعوري أم أن الشـعور هو الذي يجب أن يحضـر في البداية وينتج عنه الفعل؟ هل عليَّ أن أغير نظرتي بيدي أم أن هناك يداً خفية ستغيرها؟

٨

الحادي والعشرون من شهر آب ١٩٩٤م

لا يشترط في الجمال وإن كان حقيقيا أن يبقى، ولا تترك لنا الحياة دائما كل جميل، علينا أن نتلقى الصدمات ونحولها لأجنحة للطيران لا لثقل يشدنا للأسفل.

انقضت سنتان على زواجي من شام، صهيب الصغير حضر إلى الدنيا وقد أصرت شام على أن نسميه صهيبا على اسم صديقي الذي تحول بظلم عمه له من غني إلى فقير، أرادت أن تجعلني أكثر تحديا لنفسي على أنني سأعطي ابني الصغير هذا حقه وأتوكل على الله، بدأنا مرحلة الإعداد لمختبرنا الخاص الذي سنفتتحه قريبا أنا وسلمى وشام، اليوم هبطت بي الطائرة في ألمانيا مع صديقي الذي سيدير المختبر مؤقتا إلى أن أتمكن منه وأمتلك الخبرة لذلك، كان هدف الرحلة هو أخذ جولة سريعة على بعض الأجهزة الطبية التي نحتاجها في المختبر وبمساعدة بعض المهندسين

هناك، من المفترض أن تستمر رحلتنا لمدة أسبوع، في الأمس كانت ذكرى زواجنا الثانية أنا وشام ولم يكن قلبي مرتاحا لفراقها لأول مرة في حياتي ولا لمفارقة نظام حياتنا الرائع لمدة أسبوع كامل ولا لفراق الصغير صهيب.

كنت قد بدأت أشعر فعلا بوضع أقدامي على بداية طريق رحلات السماء التي تتحدث عنها شام وبدأت أرى الحياة فعلا من منظورها، بدأت أفهم ما تقصده من كل كلمة تقولها بشكل أكبر من ذي قبل وبدأت أشعر معها أحيانا بما تشعر به في كل دقيقة من حياتها، إنها دائما في حالة صلاة، في حالة خشوع مع كل تفصيل من تفاصيل اليوم ومع كل موقف سواء كان حزينا أم سعيدا، لا أنسى كيف كان وجهها يفيض حزنا عندما تتصدق على أحد عاملي النظافة في الشارع، كأنها تقول له «أرجوك لا تشكرني، لا تنظر لي بنظرة الامتنان تلك، لست مسكينا ولا أتفضل عليك بذلك، بل على العكس تماما، أنا هي المسكينة وأنا من يجب أن أنظر لك بنظرة الامتنان هذه» كانت تعيش حياتها السماوية قبل الموت تماما كالعبارة المنقوشة فوق باب المكتبة، لم أصل بعد لما وصلت إليه وإنما كما قلت كنت قد بدأت أضع أقدامي على بداية الطريق خلفها، كنت ما زلت بحاجة لأن أبقي يدي في يدها، ولأن تبقى أذني تستمع لجمال كلامها.

نحن في منتصف الشهر العربي، والقمر مكتمل تماما ويظهر واضحا أمامي من شرفة الفندق وأنا مستلق على السرير، منظره يدعو للابتسام، تعشق شام هذا المنظر تصر أن نقضي ليالي الأيام البيض من كل شهر عربي بعد صلاة العشاء في حديقة المنزل بدلا من المكتبة، الساعة الثانية فجرا، لم أستطع النوم، كنت أتمنى اتصالا من شام إلا أن التوقيت في الأردن يشير الآن إلى السادسة صباحا وأخشى أن تكون قد عادت للنوم بعد الشروق فأقلق نومها باتصالي.

رن هاتف الغرفة، اتصال من الأردن...

أجبت « وعليكم السلام ......نعم تفضل من المتحدث ؟ ..... نعم صحيح .... »

أقفلت الهاتف، وأقفلت الدنيا بابها في وجهي، اختفى كل شيء من حولي وكأنني أجلس على قارب في ليلة مظلمة وسط نهر عريض أخذ من الليل لونه ووحشته، وأرى القارب وهو يسير بي باتجاه المنحدر في نهاية النهر، التيار أقوى من أستطيع التجديف ضده، منظر القمر الذي كان قبل قليل اختفى تماما وكأن القمر توارى خلف الغيوم لأنه يعلم أن حزني أكبر من أن يستطيع بجماله مواساتي، لم يكن الحادي والعشرين من آب لهذا العام يوم مشاركتي لحزن شام حيث ذكرى حريق المسجد الأقصى المبارك والذي كان يمثل لشام

بالإضافة لكونه ذكرى مؤلمة دافعا لها لتبحث أكثر في تفاصيل ذلـك المكان الطاهر المقدس وتبحـث أكثر في طريقة خدمته قـدر الإمكان، وإنما كان أيضـا حزنا على حزن بالنسـبة لي حيث حزني هذه المرة لم يكن مع شام بل كان عليها.

صـادفت وسـط النهر العريض المظلم عامود خشـب طويل مثبت في قاع النهر فتشبثت به كفرصة أخيرة لعدم السقوط من المنحدر،قررت أنني لن أصـدق ما قيل لي حتى أرى ذلك في عينـي، قـررت أن لا أعيش الحـزن وأن أعتبر كل ما قيل مجرد خدعة، يجيب أن أعود للديار الآن.

لم أنسَ المختبر، وكلفت صـديقي بأن يكمل هو المهمة وعدت مسـرعا إلى الأردن وفي داخلي أمل أن تكون شـام قد عادت للحياة، أو أن يكون الخبر مجرد خدعة.

❀ ❀ ❀

تركت شام يدي عند بداية الطريق وأكملت لوحدها، لن أسمع صـوتها بعد اليوم، تعرضَـت لحادث مميت ليلة الأمس وهي عائـدة من منزل عائلتـي، كان قدرها أن تتوقف حياتها على الأرض هنا، يود القمر أن يرحل أو أن يختفي للأبد، يتصارع الخضـار ليزرع نفسـه على رؤوس الجبال دون باقيها، وتود المحيطات لو أنها تتبخر كلها وتسكن في الغيوم قرب روح شام

فما عاد لها رغبة في الأرض بعد رحيل ذلك الجمال عنها!
بعد أسبوعين من مبيتي في بيت عائلتي الكبير قررت العودة للمنـزل، النور اختفـى تماما من الدنيا، لم أعـد أرى أمامي أبدا، كان بيني وبين شـام شـيء مختلف تماما عن أي علاقة زواج أخرى، لم تكن علاقة شـراكة النصف بالنصف ولا بأي نسـبة أخرى بل كانت علاقة الكل بالكل (مودةً ورحمة)، كنا أصـدقاء فعـلا بمعنى الكلمة، لم أشـعر يومـا أنها تنظر لي نظـرة بنك الأموال ولم تجعلني أنظر لها نظرة عاملة المنزل، فنتـج عـن ذلك قيام كل منا بواجبه على أكمل وجه مع وجود كامـل الأحترام المتبادل، لم أجد شخصـا يحمل هدوءا أكثر منـي كما كانت هي، لم أجد شخصـا أحـدث نقلة نوعية في حياتـي وبـدأ بتغيير نظرتـي وأفكاري ومشـاعري كما هي، الـزواج عندها له معنـى مختلف تماما بعيدا عن المادية التي لوثـت الوجود وأنهـت الكثير الكثير من العلاقـات لأنها من الأساس بنيت على أساس متخلخل، لأنه أساس أرضي بحت، علاقـة هدفها فقط المال والبنـون دون التفكير بلماذا وكيف وعلى أي أساس وما الهدف ؟!

أدركـت كم أحبها، وأدركت أن للحب معنى آخر غير المتعارف عليـه، أو ربمـا أظلم ما كان بيننـا إن لقبته بالحب، يجب أن يخترع له في قاموس اللغة مفردة مميزة يكون تعريفها «الحياة مع شام» !

أدركت أن الفتاة التي تستحق الحب فعلا هي من تفتن روحك وليست من تفتن شهوتك، وآمنت أن الجميلة فعلا هي التي تحررك، الجميلة فعلا هي التي تأخذك لمكان ما في السماء، ترفعك معها إليه، لا التي تقيدك وتلف على رقبتك حبلا من الأرض فيشدك إليها فلا تقوم بعدها أبدا!

المنزل أصبح قطعة من العذاب، الجدران تتصدع حزنا تود الأعمدة لو تعانقني وتشاركني البكاء، شام موجودة في كل زاوية من زوايا المنزل، أقبلت على غرفة المكتبة مسرعا، وضعت يدي على المقبض، شددت عليه بكل عزمي داخل قبضتي إلا أن نفسي لم تسمح لي بأن أنزل المقبض وأفتح الباب، كاد ينكسر المقبض في يدي، فأقبلت بيدي الأخرى وأمسكت المفتاح وأقفلت الغرفة دون أن أستطيع إلقاء نظرة عليها، إنها جنة شام وسماؤها، لا أستطيع اقتحامها بدون وجود شام بجانبي، خبأت المفتاح ولم أسمح لأحد بدخول الغرفة، إلا أنني اكتشفت لاحقا أن الكون كله كان جنة لشام وسمائها مرتفعة جدا بلا حدود لتتسع للكون كله، لم أعد أطيق الحياة، يبدو أن بداية الطريق الذي تركتني عنده شام كان يسبقه نزول حاد جداً، أفلتت يدي ورحلت وفقدت توازني فبدأت بالنزول بشكل عمودي قوي جدا، نزلت أكثر مما كنت عليه قبل ظهور شام في حياتي، لم يعد هنالك نظام لليوم، لم يعد هنالك حوارات فكرية ولا رحلات روحية ولا صلاة

ولا ثقافة ولا خشوع ولا سير في الشوارع ولا وقفة تفكر على حافة المطل قرب منزلنا ولا بلدة قديمة ولا قرآن ولا أي شيء جميل كانت شام تشاركني فيه، كانت شام قد جعلت قلبي سماء كبيرة صافية ذات زرقة هادئة ولكن هل يمكن التخيل (إذا السماء انفطرت)؟ إنها القيامة في داخلي.

لم تحمل شام من الشام اسمها فقط، كانت تشبهها فعلا، كنت أشتم رائحة الياسمين في زوايا حروف كلماتها، كانت سهلة واضحة مريحة للنفس وتشرح الصدر تماما كالشام من أعلى جبل قاسيون، تجمع في داخلها خليطا من حارات الشام القديمة بعراقتها وشوارع الشام المزدحمة التي تنبض بالحياة، لم تكن تحمل قبر صلاح الدين الأيوبي كالشام وإنما كانت عزيمته باتجاه القدس حية في داخلها، ولم تكن المنارة الشرقية في روحها تنتظر نزول عيسى -عليه السلام- وإنما كانت روحها تسعى لتصل للسماء حيث عيسى - عليه السلام - وربه، رحلات دواخلها إلى سكينة جوار النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة المنورة لم تتوقف بتوقف محطة الحجاز عن العمل منذ عشرات السنين، زهر الليمون الشامي متفتح على جبينها وتنبت حمرة توت الشام على وجنيتيها الخجولتين، نهر بردى مازال ينبض حياة بين ثنايا قلبها، معيشتك بقربها تجعلك تألفها وتتعلق بها وتعيش أجواء مختلفة متميزة لا تشعر بها في أي مكان آخرتمام كالشام

وأهلهــا، الشــوق يطعن قلبك بمجــرد خروجك من محيطها، وروحك قــد تبقى بجاورها وتترك لجســدك حرية الرحيل، إنها الشــام فعلا بكل ما فيها، وكما أن الشام شامة على خد الزمــان كما يقال فإن شــاماً كانت شــامة علــى خد حياتي فزادتها جمالاً.

٩

ابيضت عينا يعقوب، وآخر فقد عقله، وآخر أنهى حياته، إنه عدوك الذي هو منك وفيك، من فطرتك التي فطرك الله عليها، إنه المرتد الذي وجب قتله لأنه يعلم أسرارك وإن أصابك فسيصيبك في مقتل، سيفقدك التوازن، سيمنعك من استكمال مسيرتك، حكمه ظالم، وأسلحته حادة ذات رؤوس سامة تصيب القلب مباشرة وتعطل العقل من أي شيء لا يخدمه وتشل الإرادة ، فقتاله جهاد صعب جدا، لا يهزمه إلا صاحب الإيمان القوي، إنه الحزن وما أدراك ما الحزن، بركان يثور في الصدر، فيجعل روح صاحبه (تصلى نارا حامية)، تعوذ منه رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- بعدما تعوذ من الهم مباشرة فهو أكبر معوق لاستمرارية الحياة، يفقدك الشعور بالزمن، فتارة تظنه قد مشى سريعا وتارة تشعر أنه يمتطي سلحفاة عجوز، يستغل ضعف الإيمان فيلتف على بواقيه في قلبك ويعتصرها كما يعتصر الثعبان فريسته، يسيطر على عقلك شعور موت قلبك تماما وتيأس

من أي محاولة لإنعاشه ويبقى الصوت في رأسك ينادي (أنّى يحيي هذه الله بعد موتها)!

«السلام عليكم، تحياتي يا عم..أتعرف أحدا يسكن في هذا الحي يدعى السيد رشيد؟».

إنه يحيى، شاب في مقتبل العمر ، متوسط القامة حنطاوي البشرة حليق اللحية والشارب، ذو شعر أسود خفيف، يحافظ على بنية جسده الرياضية، يدرس الهندسة المدنية في الجامعة الأردنية وهو الابن الوحيد للدكتور جميل الذي فجر ضرورة استمرارية إعمار العقل لدى رشيد، كان والده قد تلقى عرضا للتدريس في بريطانيا فقرر الهجرة مع زوجته إلى هناك وترك يحيى هنا بمفرده، كانوا يسكنون بمنطقة الرزقاء التي تعتبر بعيدة بعض الشيء عن الجامعة الأردنية، اتفق يحيى مع والده على أن يتم تأجير منزل العائلة وأن يبحث يحيى على سكن بقرب جامعته، وقد أعطى الدكتور جميل عنوان رشيد لابنه لكي يساعده في إيجاد سكن قريب من الجامعة حيث يسكن رشيد، لم يكن الدكتور جميل يعلم ما حل برشيد، وسافر دون أن تسمح له الفرصة بأن يقابله.

«وعليكم السلام ، نعم .. لقد وصلت يا بني، إنه في هذا المنزل المجاور لنا، ولكن مالذي أتى بك إلى بيت الحزن والجنون هذا!؟».

رد يحيى بشيء من التعجب « الجنون والحزن!!... ولماذا تصفه بذلك؟! إنه صديق والدي ولا أظن أن والدي يصادق المجانين».

«يبدو أن والدك لم يره منذ زمن بعيد، لقد نزلت برشيد محنة قبل حوالي الستة أشهر من الآن ولم يستطع الخروج منها ويبدو أن حالته تسوء كل يوم، لقد توفيت زوجته ومعها ابنه الوحيد، فأصابه من الحزن ما تتصدع له الشم من الجبال وقد شارف على الجنون إن لم يكن مجنونا أصلا، فأهل الحي يتداولون عنه إنه يعيش حياته معتقدا أن ابنه الذي كان رضيعا يعيش معه ويدرس الهندسة في الجامعة الأردنية، تبا للحزن وافعاله، لقد كان رشيد من أروع من لقيت في حياتي وكانت شام زوجته نعم الزوجة وصاحبة خلق وثقافة ودين».

شكر يحيى جار رشيد، وأقبل على منزل رشيد دون أي خوف من كلام جاره عنه، يتمتع يحيى بروح التحدي وحب المغامرة ولديه شخصية اجتماعية جدا، يحب مساعدة الآخرين، مثقف جدا وقريب جدا من ربه كما هو والده، تشعر أنه أكبر من عمره،متحدث قوي ولا يخشى شيئا، كان دائما ما يمثل الطلاب في الانتخابات الجامعية ولا يزال، لديه جمهور كبير، ومحبوب لدى الجميع.

كان الحزن قد استهلك رشيدا إلى أقصى الحدود، أكل عقله، وأنهك قلبه، وأفقده الشعور بالزمن تماما، ويبدو أن سقوطه من على حافة طريق رحلات السماء مازال مستمرا، نسي كل كلام شام، وتذكر فقط أنه فقد كل شيء في حياته، ولو أنه تذكر كلامها وفهم جيدا ما كانت تحاول أن توصله إليه لما كان على حاله هذه الآن، لكن الحزن يسدل ستاره الأسود على العيون، ويعمي القلوب التي في الصدور.

طرق يحيى الباب دون أي توقع لشكل من سيفتح له، طرق عدة مرات ولم يفتح له أحد، وعندما أدار يحيى ظهره وهم بالرحيل أتاه صوت هزيل من الخلف «من ؟».

توقف يحيى وأعاد استقبال الباب وقال:

«أنا يحيى، زميل صهيب في الجامعة».

فتح الباب، ليقف خيال رجل هزيل أمامه، طويل القامة، لم يلمس المقص لحيته منذ شهور، وشعره طويل بعض الشيء هذبه بيده جانبا، يرتدي قميصا وبنطالا بشكل مرتب.

بادر رشيد قائلا « أهلا وسهلا بصديق الغالي، تفضل بالدخول»...
بعد أول جلسة بين رشيد ويحيى أعاد يحيى حسابات حياته ورتب أموره وقرر خوض تجربة جديدة لم يجربها من قبل،

وكان الصـوت بداخلـه يلـح عليه بأنه قادر جـدا على إيجاد الحل لصـديق والـده، لقد قـرر فعلا أن يعيشـ الجنون مع رشيد.

لم يخبره بأنه ابن الدكتور جميل، وبدأ بالبحث فيما أصـابه وبدأ بسـماع قصـته بتفاصـيلها من أقرب الناسـ إليه، قرأ الكثير من المقالات في هذا المجال وراجع الكثير من أصدقائه المتخصصـين في الطب النفسي واستشار البارعين المعروفين في الأردن في هذا المجل، وضع خطة لنفسه وبدأ.

رحبـت عائلـة رشـيد بيحيـى وتأملـت بـه خـيرا، وتعهدت بمسـاعدته بكل ما يطلبه، أما رشيد فقد ارتاح جدا لصديق صهيب وأحب كلامه وأسلوب نقاشه الذي يذكره كثيرا بحبة القلب شام، واعتبره فعلا بمقام ابنه صهيب.

اقترح يحيى على رشـيد أن يسـكن عند صـهيب في غرفته ويدفع مقابل ذلك إيجار هذا السـكن، وقوبل طلبه بالموافقة المباشرة على ذلك.

لم يشـعر يحيى رشـيدا بـأي نوع مـن أنواع الاسـتغراب أو التوتـر أو وجود شـيء غـير عادي عند حديثه عن صـهيب، وأقنعه بطريقة ما أن صـهيبا سيسـافر خلال الأيام القادمة

لتلقي دورة للمتميزين مع الجامعة في منطقة سياحية بعيدة في الأردن وستستمر طويلا لكي ينسيه قليلا الحديث عنه وعن وجوده في المنزل، كان الوضع أقرب ما يكون من الوضع العادي.

كان يحيى يغادر إلى جامعته في الصباح ويعود بعد العصر إلى المنزل، ليبدأ حواراته مع رشيد، طلب يحيى منه أن يقص عليه قصة حياته ولم يمانع رشيد بذلك، سبحان من أراح قلبه ليحيى وشرح صدره له وكأنه يقول له « أعلم أنك تواسيني وأنني مريض لكنني سأسير معك إلى النهاية لأعود للحياة من جديد» !

❀ ❀ ❀

ومرت الشهور على هذه الحال، كان رشيد متلهفا جدا للكلام ولأن يستمع له شخص ما بكل حواسه، كان يذكر في قصة حياته أدق التفاصيل وكان يحيى مستمعا جيدا يظهر تفاعله بشكل متميز يحمس المتكلم على الاستمرار.

ومع بداية وصول رشيد إلى قصة ظهور شام في حياته بدأ يختم كل كلمة يقولها بدمعة، وبين كل جملة وجملة يعبر عن شوقه لها ولوجودها على هذه الأرض على الأقل حتى وإن

لم تكـن معـه، كان يحيى يتعمد توقيف رشـيد في تفاصـيل قصـته مع شام وكان يجعله أكثر تعمقا فيما يقوله عند ذكره لحاواراته الكثيرة التي خاضها مع شام، كان يحفظ ما قالته شـام عن ظهر قلب، إلا أنه طوال السـتة أشهر التي قضاها بمفرده لم يخطر له أن يعيد تدبر حاواراته معها والتي كانت كفيلـة بعلاجه، بدأ فعلا يتذكر أين كانت توصـله حوارته مع شام، بدأ ينتبه أكثر لما أوصل نفسه إليه الآن، بدأ معدل ذكر صهيب الذي يخيل لرشيد أنه يعيش معه يقل شيئا فشيئا.

كان مختبر رشـيد واقفا على حاله وكان صديقه الذي سافر معـه وبمسـاعدة سـلمى قد جعلـوا المختبر قريبـا جدا من الجاهزيـة التامـة، إلا أن أحـدا لم يبدأ بمزاولـة المهنة فيه، ومع الأيام أقنع يحيى رشـيد بضرورة عودته للعمل وضرورة ممارسـته لمهنته التي أحبها وفعلا بدأت الحوارات بينه وبين سلمى بآلية البدء في العمل في المختبر.

كان يحيى يقتنص من كلام رشـيد النشـاطات الجميلة التي كانت شـام تشـارك رشـيدا بها، وبدأ يحاول أن يعيد رشيد لممارسـتها من جديد، بدأ يحاول إعادته للصـلاة على وقتها إلا أن ذلك كان صـعبا جدا وكان رشـيد نادرا ما يسـتجيب، ومع ذلك اسـتمرت الحوارات بينهم بهدف أن يضـع رشـيد يديه من جديد على حبل من حبال السماء، تركيز يحيى كان

دائما يصب على تذكير رشيد بفكرة شام عن روحانية العبادة ويذكره بخشوع شام المستمر في كل تفصيل من تفاصيل حياتها، بدأ يعيد له فكرة العالم السماوي وضرورة اتصالنا به،وذكره بروعة الفجر وأهميته عند شام.

الذاكرة المشرقة تعود لرشيد شيئا فشيئا إلا أنه في أفعاله على أرض الواقع لم يلمس يحيى أي تطور قوي سوى عودته للعمل، سيطر عليه شعور التعجب اتجاه شخصية شام وتمنى لو أنه قابلها قبل موتها ، وكانت الأسئلة تحاصره كل مساء «يا إلهي ، أكانت بشرا فعلا، كيف تمتلك تلك القوة على التأثير ! لقد أعدت على العم رشيد كل الأفكار التي كانت تطرحها هي عليه ولكن لم يتأثر كثيرا، كيف فعلت ذلك!».

١٠

١٩٩٦م

تخـرج يحيـى منذ ثلاثـة أشـهر وغـادر الأردن متوجها إلى بريطانيـا حيث يعيش والداه ليسـتقر معهم هناك، ومضـى على آخر جلسة لي مع طبيبي النفسي الذي دلني عليه يحيى أسـبوعان تقريبا، أسـتطيع أن أقول أنني عدت رشيدا الذي كان قبل شام ومعرفتي بها أو ربما أسوأ قليلا.

الليلـة لم يـزرني النوم، لم أكن مرتاحا لحياتي كثيرا، أشـعر وكأنني أقضـي يومـي كله كالنائم تماما، ليسـ هنالك معنى للحيـاة، لا أقـوم بأي نشـاط سـوى عملي، الاسـتيقاظ كما تعرفه شـام هو « المقاومة»، المقاومة لأمور تشـدك للأسفل، أريد أن أحلق كما كنت مع شـام، أريد أن أسـتعيد اللذة التي كانـت تلمس روحي معها، حاولت أن أخرج من نفسـي قليلا وأنظـر لها ولموقعها في هـذا الكون، أراني وأنا نائم، أسـعى لأوقظني أو لأنقذني، يحتاج استيقاظي لعزم كبير، واستمرار

نومي هلاك محتوم، لا أعلم إن كان عقلي قادرا على التفكير العميـق وأنا في حالتي هذه، كنت في حالة تضــارب كبير بين الأفكار والمشــاعر وبين الواقع والخيال، أمســكت مصــحفي بعد فراق طويل جدا، وفتحت على ســورة الزمر، كانت شــام تعشــق التفكـر والخشــوع في نهاياتها، بدأت أقــرأ من حيث أحبت شام (**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا** ...).

أيــن أنا ؟ هل أنا نائم أم أنني فارقت الحياة؟! يبدو أنه مكان ما في الأســفل، مكان لم أره من قبل، نظرت عن يميني فإذا بأقــوام لباســهم البياض لا تميز وجوههم من شــدة نورها، يــرددون (لا إلــه إلا اللّه) بصــوت هــادئ حنون جــدا تماما كصوت عصــافير الفجر، أقبل باتجاهي أحدهم ومسح بيده على صدري ثم عاد من حيث أتى، وأنا أقف لا أحرك ساكنا، إلا أن أصــواتا خائفة متألمة أفزعتني عن شــمالي وهي تردد (لا إلــه إلا اللّه) يتألمــون كأنهم يدوســون الجمــر بأقدامهم ، يصــرخون ... لا إلــه إلا اللّه... لا إلــه إلا اللّه ، اســتيقظت ســريعا ولكن مازال الصــوت يعلوا (اللّه)، قمت من فراشــي مفزوعا، لماذا لا يتوقف الصــوت في أذني !، إلا أن الطمأنينة عادت لي عندما أدركت أنه صــوت المؤذن يؤذن لأذان الفجر الأول.

هي والله هي ! هي من زارتني ومسـحت بكفها الثلجي على صـدري، هي من أرادت أن تمنحني القوة من جديد، هي من لا ترضـى أبدا أن تراني ضـعيفا مقيدا بحبـال الطين، هي مـن أرادت طـوال حياتهـا أن تجمع حبال السـماء في يدي، هـي مـن أرادت لروحي الحرية، هي مـن أرادت أن تخبرني أن كل من على الأرض في النهاية سـيرددون شهادة التوحيد، الكل سـيرددها إلا أن بعضـنا سـيرددها بهدوء أهل اليمين والآخرين سيرددونها بفزع أهل الشمال.

أشعر أنني أكثر حرية، توجهت مسرعا لدورة المياه، توضأت، اتجهت للقبلة، أريد أن أصـلي، صـلاة مـاذا لا يهم، أريد أن أمهـد الطريـق أكثر لروحـي، كبرت «الله أكـبر» وبدأت كما علمتنـي شـام بدعاء الاسـتفتاح الذي يذكرك بالإستسـلام التمام للسـماء «وجهت وجهي للذي فطر السـموات والأرض حنيفـاً مسـلما وما أنا من المشـركين، إن صـلاتي ونسـكي ومحيـاي ومماتي لله رب العالمين لا شـريك له وبذلك أمرت وأنا من المشـركين».

يا إلهي!! ما هذا الخطأ الفادح؟! توقفت عن الكلام « أنا من المشـركين» ! قد تكـون مجرد زلة لسـان، إلا أن عقلي الليلة يرفض السـماح بـأي خطأ، موقفي في جـوف الليل والهدوء المحيـط في المـكان أخذ عقلي وأنا مازلـت واقفا متجمدا في

مكاني إلى شـام وهي تقص قصـة سـيدنا موسـى - عليه السـلام- ، كـم دمعـت عيناها وارتجفت ليلتها وهي تصـف وقـوف كليـم الله في الـوادي المقدس، الظلام يسـيطر على المكان والصـحراء واسـعة، تيه وبرد شـديد، استبشر بالنار خيرا، عله يهتدي، توجه إليها بضعف البشر وحاجتهم، توجه وحيدا، فاسـتُقبل بـ (إني أنا ربك ..) (إنني أنا الله)، مسافر ضـعيف تائـه في ظلام دامس وبرد شـديد يتلقـى مثل هذه العبـارات من صـوت لا يعلم مصـدره، يـالله! ، كيف تحمل أن يقف على قدميه! سـقطت علـى ركبتيي وأنا أبكي ويداي بجانبي وأنظر موضـع السجود ، أراني مكانه، الثلث الأخير، تنزل بجلالته إلى السـماء الدنيا وأنا التائه الضعيف المحتاج أقـف أمامه، ثم أقول «أنا من المشـركين» مـا أجرأني عليك! دخلـت في نوبـة بكاء طويلة لم يوقظني منهـا إلا أذان الفجر الثاني ورغم خوفي وحزني أشرقت نفسي من جديد.

توجهـت مجـددا لدورة الميـاة هذبـت لحيتي وشـعري قدر المسـتطاع، لبست أحسن ما عندي وتوجهت للمسجد، سرت من حيث كنا نسـير أنا وشـام، أدركت تماما أن شام لم تفلت يـدي ولم تحاول ذلـك أبدا وإنما أنا الذي أصـررت على أن أفلت يدها وأسـقط، مازالت واقفة مكانهـا تنتظرني لأكمل المسير، لا يهم وجودها جسديا إلا أن روحها مازالت ترفرف في المكان، صليت وعدت للمنزل.

وقررت وبعد عدة سـنوات أن أفتح باب المكتبة وأعود للقراءة مجـددا وأنـا واثـق من أن شـام معي دوما لنكمـل من حيث توقفنـا، توقفـت عند الباب، ورفعت رأسـي لأقـرأ العبارات المنقوشـة فوق الباب، الآن فهتمها بالكامل كيف لم أقرأ هذه العبارات منذ رحيل شام!

«عشـ حياتـك السـماوية قبل موتـك واعمل ليبـقَ وجودك الدنيوي حاضراً للأبد».

لم ينتـه وجودها بجانبـي ولن ينتهي وجودهـا الدنيوي أبدا بعـد موتها ،فتحت الباب، كنت أتمنـى أن أجد على الطاولة آخر كتاب كانت تقرأ فيه شام قبل أن تفارق الدنيا بجسدها، إلا أن الطاولة وسـط طقم الكنب كانـت فارغة إلا من ورقة واحدة، أقبلت مسرعا وأمسكتها...

«زوجـي العزيـز، لم أطـق أن أجلس هنا في أكـثر مكان كان يحتوي حواراتنا دون وجودك بجانبي، سأخرج الآن وسأنتظر عودتـك بعد أسـبوع لنعود مـن جديد ونكمـل الطريق» .... زوجتك الفخورة بك دائما .. شام..!

يــالله ، يا لســعدي بك ويا لفخري بك ويــا لهنائي بك،رفعت الورقــة أمــام وجهــي وقبلتها، ثم إلى صــدري ضــممتها، ثم خبأتها كجوهرة ثمينة نادرة الوجود.

عــدت لحياتي، وعدت تدريجيا لبرنامجي الذي كنت أســير فيــه مع شــام، عــدت لأتفكر أكــثر وأكثر وأتعمــق في كل ما حفظتــه من شــام، وأحلــل حواراتنــا القديمة وأعــود وأقرأ وأتفكر، عادت البلدة القديمة بكل ما فيها من جمال وجمالها يكمن في حب شام لها، عدت للسير في الطرقات بعد غروب الشمس والتأمل في المطل قرب المنزل، عدت للصلاة والقرآن والكتب والخشوع، أعلنت بين معارفي أن المكتبة مفتوحة يوم الأربعاء بعد العشاء من كل أسبوع لعقد جلسة مناقشة لكتاب نختاره، عدت لأكمل المسير من حيث سقطت سابقا ولأمسك بيد شام وأتشبث بها أكثر وأكثر وأسير خلفها لموطن الراحة والنقاء.

١١

مرت السنين عشـرات ومررت بالكثير من العثرات، وهطلت مـن عيـوني بحار العـبرات، واليوم أشـعر أننـي على حافة سـأقفز منهـا إلى أعلـى دون أي نـزول آخر ممكـن، لأن ما يسـحب للأسـفل سيذهب لأصـله ويترك أجزائي السماوية حرة طليقة تذهب هي الأخرى إلى أصلها.

سـافر يحيى مـع التوأمين جمان وريـان إلى بريطانيا بعدما قضـوا عندي عطلة اسـتمرت لثـلاث أسـابيع، أعدت فيها الكثـير مـن الذكريات الجميلة مع يحيـى، لم يكن دور يحيى في حياتي يقل كثيرا عن دور شام، أحمد الله عليهما الاثنان، مـا أعظم الإنسـان عندما يؤمن بقدرته على تغيير شـخص للأفضل ويسخر كل قدراته فـي سبيل ذلك بلا مقابل، هؤلاء هـم من يسـتحقون الحيـاة على هـذه الأرض وليسـ أولئك الطيبين المنعزلين الساعين إلى الخلاص الفردي وحسب.

عدت لحياة الوحدة ماديا إلا أنني معنويا لا أشـعر بها أبدا، مضـت عشرات السنين وشـام مازالت تسكن في كل ركن من أركان المنـزل، بـل في كل ركن من أركان الكـون، كم علمتني، كـم رفعت من قدري كإنسـان بأمور لم أكن ألقي لها بالا، كم حررتنـي مـن القيود، كـم ارتقت بي، لم تتركنـي، إنما بقيت ممسـكة بيدي حتى أوصـلتني لبر الأمـان وأقامت معي، ما أطيب العيش معها، وما أمرَّ الدنيا إن لم يكن بها شام.

وصـلت فعلا لأن أجلس خلف شبكية عيون شام وأرى الدنيا منها وأخشـع كما كانت تفعل في كل تفصـيل في هذه الحياة، أربط كل شيء في العالم السماوي، أرى أثر الله في كل ما هو حـولي وأعيش على حبه، أعيش في جنة الدنيا كما وصـفها ابـن تيمية حـين قـال «إن في الدنيا جنة مـن لم يدخلها لن يدخـل جنة الآخرة»، سـتدرك عندما تصـل لهذه المرحلة أن عقابـك في بعـدك عن الله هـو الحرمان من لـذة في الدنيا قبل أن يكون عقاب الآخرة، لن تشعر بهذا العقاب إلا عندما تـذوق حلاوة القرب منه ثـم تأخذك الدنيا لمرارة البعد عنه، قـد يبعدك الله قليـلا لتتذوق هذه المرارة فتـؤوب إليه أكثر تعلقـا بـه، تماما كما يحـدث في الفجر وعقـاب البعد عنها بعـد تذوق حلاوتهـا، لا يحتاج بعدك عـن الفجر لأن تعاقب نفسـك بشـيء مادي ملموس وإنما سـتبقى روحك في حالة

سخط عليك، تجلدك جلدا لأنك حرمتها من حريتها ومن لذة تحليقها، ولن تيأس روحك من ذلك إلا إذا أطلت عنادك فيأتيك العقاب الأكبر لنفسك بأن تسكت روحك عن مطلبها وتلتف حبال الأرض حولها فتقيدها وحول فمها فتخرسها، أما إذا استطعت بعزيمتك تقطيع هذه الحبال فستجري روحك جريا كما يجري طفل صغير على أمه وتعانق موطنها الأصلي عناقا عميقا يورثك لذة أكثر مما كانت عليه سابقا.

أما عن روح العبادة التي كانت دائما ما تتحدث عنها شام بأنها هي الهدف المرجو من كل العبادات باختلافها فقد أدركت أخيرا أننا لن نصل لها إلا إذا تحولت قبلة قلوبنا من «الجنة» إلى «رب الجنة» جل جلاله، وتحقق في داخلنا خليط من الخوف والحب والرجاء تجاهه.

حبال السماء، وما أكثرها من حبال، وما أبعد بصيرتنا العمياء عنها، حبال بيضاء مضيئة، تدور حولنا، تلامس محيط قلوبنا الخارجي، إلا أن قلوبنا ترفضها وتصر على أن تقطع صلتها بالسماء وتوصلها بالأرض لتصبح حبالا طينية تفقد أي صفة حملتها من السماء، حبالا تقيد بدلا من أن تكون حبالا للتحرر.

حبال السماء هي كل شيء ميسر لنا في هذه الدنيا من نعم وأشخاص وعبادات ومشاهد ومواقف وحركات وعلاقاتك مع الناس وتصرفاتك داخل المنزل قبل خارجه، جسدك وروحك وعقلك وقلبك، وكل شيء من حولك تستطيع أن تجعل منه حبلا إلى السماء أو حبلا إلى الأرض، نعم حتى العبادات، عندما تقطع صلتها بالسماء لتكون مادية أرضية بحتة، تصبح مقيدة لك ثقيلة عليك بدلا من أن تكون راحة لنفسك وصلة بينك وبين ربك تدفعك للخشوع التام ولفهم هذا الكون بشكل أفضل، أما بالنسبة لي فإن أكبر حبل أطلقني وحررني في حياتي كان الحبل المسمى بـ «شام»، حبل فتح لي الأفق لأرى باقي الحبال وأنقذ قلبي من أن يستمر في قيوده، ومتى تعلقت فعلا بهذه الحبال أخذت روحك تعتاد على مفارقة جسدك الطيني وتسافر باتجاه السماء إلى حيث موطنها الأبدي فمتى ما عزمت على الذهاب بلا عودة خرجت بسلاسة تامة وطمأنينة، على عكس من قيدت حباله الطينية روحه والتصقت بها وربما تغلغلت بداخلها بدلاً من تغلغل الروح بين حبات الطين، فأصبح خلاص الروح منها عند مجيء أمر اللّه يورث ألما يزلزل طين الجسد زلزلة، لذلك اخرج من نفسك وانظر، انتبه للطريق واصرخ من داخلك بأعلى صوتك «لا يا قيود الأرض ومرحبا بحبال السماء»...

الليلة لم تأت شـام لتمسح على صدري بيدها الباردة وترحل وإنما أقبلت علي بوجهها الضاحك المستبشر وأمسكت بيدي وسحبتني لنسير سويا جنبا إلى جنب في طريق لا رجعة فيه أبدا.

٢٠١٤/٩/٢٠م
الكويت